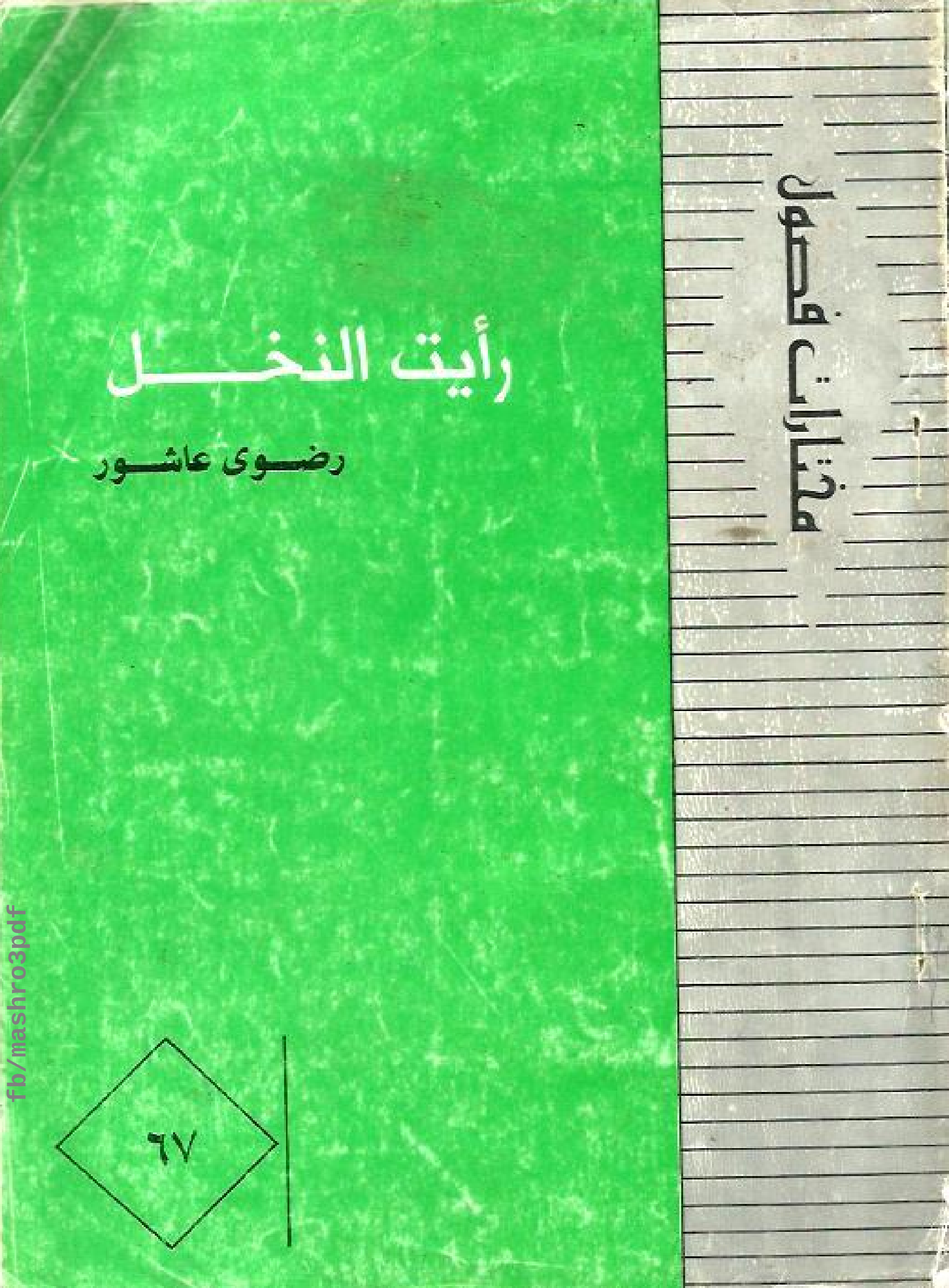

مختارات فصول
رأيت النخل
رضوى عاشور
٦٧

مختارات فصول

سلسلة أدبية شهرية

(٦٧)

أغسطس ١٩٨٩

مختارات فصول
سلسلة أدبية شهرية
تصدر عن
الهيئة المصرية
العامة للكتاب

الغلاف للفنان سعد عبد الوهاب

مختارات فصول - مختارات فصول - مختارات فصول

رأيت النخل

قصص

رضوى عاشور



يريد أن يطمئن

انفتح الباب ببطء وأطل وجه عم عبـــد القادر يستأذن فى الدخول فلما أومأ له الدكتور قاسم برأسه دخل يتبعه شخص لا أعرفه • عم عبد القادر هو الشرطى المكلف بحراسة المدخل الصغير للكلية ، تراه طوال اليوم جالسا على كرسى من الخيزران يشد سترته سـير جلدى يقطع صدره بالورب ويلتف حول كتفه الأيمن ليتصل بحزام عريض له مقبض معدنى • وكان رداؤه ـ سواء كان قطنيا أبيض فى شهور الصيف أو صوفيا اسود فى شهور الشتاء ـ عتيقا ومستهلكا لا يشى بالسلطة والقوة والرهبة المرتبطة برجل شرطة • فضلا عن أن عينيـه الصغيرتين الطيبتين وقسماته البشوشة وشاربه الأبيض الكث كانت تضفى عليه وداعة ملحوظة •

قال عم عبد القادر مفسرا :

« الأستاذ جد طالبة عندكم بالقسم وقد طلب منى أن أوصله بأحد الأساتذة » وواصل موجها حديثه للرجل وهو يستدير لمغـادرة الغـرفة : « اطمئن ، سـوف يساعدونك » ثم ألقى علينا التحية وذهب •

مد الضيف يده الكبيرة الى الدكتور قاسم الجالس وراء المكتب • قال :

ـ أنا فهمى عبد الستار ، والد شهيد ، وحفيدتى نادية أحمد فهمى عبد الستار طالبة عندكم ، هل تعرفها ؟

طلب منه الدكتور قاسم أن يجلس فى انتظاره حتى يفرغ من الأوراق التى أمامه فيتمكن من الاستماع اليه •

جلس الرجل بجوارى وكنت أنا أيضا أنتظر أن يفرغ الدكتور قاسم مما أمامه لكى يقول لى ملاحظاته على الجزء الذى قرأه من رسالتى للماجستير •

كان الرجل بادى الشيخوخة رغم ضخامة جسده له وجه مستدير وأسمر تلك السمرة البنية المميزة لأهل الصعيد • وكان يلبس بدلة عتيقة وبيده عصا غليظة •

رفع الدكتور قاسم رأسه •• قال :

ـ نعم ، أية خدمة ؟

كرر الرجل عباراته السابقة :

ـ أنا فهمى عبد الستار ، والد شهيد ، وحفيدتى نادية أحمد فهمى عبد الستار طالبة عندكم •

ـ طالبة فى أى سنة ؟

ـ فى السنة الأولى ٠

ـ أنا لاأدرس طلاب السنة الأولى ، ولكنى رئيس القسم فما هى المشكلة ؟

ابتسم الرجل باستحياء :

ـ لا الحمد لله ليس فى الأمر مشكلة ، أنا فقط أريد أن أطمئن ، هل تحضر البنت الدروس ؟ ، هل هى مجتهدة ؟ هل هى حسنة السلوك ؟ أريد أن أطمئن !

ابتسم الدكتور قاسم وقال بلهجة لا تبدو ساخرة الا لمن يعرفه جيدا :

ـ ستطمئن فى آخر السنة حين تظهر نتيجة الامتحانات !

ولكن الرجل كرر دون أن يبتسم هذه المرة :

ـ ولكنى أريد أن أطمئن الآن ، صحيح اننى ربيتها كما يجب ولم أقصر ٠٠ هل قلت لك انها ابنة شهيد ؟ عندما استشهد والد نادية كانت أمها حبلى بها ٠ حفيدتى ، نادية أحمد فهمى عبد الستار الطالبة فى قسم سيادتك ولدت فى نوفمبر ٦٧ ، وأمها الله يكرمها لم تتزوج مرة أخرى رغم انها كانت بنت سبعة عشرة سنة ، هل قلت لك انها تعمل الآن فى الامارات ؟

أخذ الدكتور قاسم يقلب فى الأوراق التى أمامه وقد بدأ يفقد اهتمامه بكلام الرجل ويكف عن الانصات له ·

ـ أنا صعيدى وقلت يانادية العلم نور ولكن الأخلاق فوق العلم والاحتشام زينة · تتحدثين مع زملائك ، لا بأس ، لكن بالحدود والأصول ، لا ترفعى عينيك الى أى منهم ، غضى الطرف فالنظر فتنة يا ابنتى ، وكونى ···

قاطعه الدكتور قاسم :

ـ وما الذى تريده منى بالضبط ؟!

ـ قلت لك يا سيدى الدكتور ، أريد شيئا واحدا فقط ، أريد أن أطمئن ! ·

ـ كيف ؟ !!

قالها الدكتور بحدة ونفاد صبر وخشيت لو استمرت المقابلة أن تنتهى بطرد الرجل من المكتب · وكنت أفكر فى المشهد المؤسف الذى سوف يحدث عندما دق الباب ودخل ثلاثة من الطلاب يحملون لافتة ورقية يريدون اطلاع الدكتور عليها ·· قرأها ثم ضحك وقال موجها حديثه الى :

ـ اسمعى يا كاميليا هذا الاعلان الجذاب لرحلة بور سعيد :

« المدينة الحرة تفتح لك بحرها
بور سعيد بحر من السلع
تعالى معنا لتسبح وتشترى ! »

واصل الدكتور قاسم الضحك وهو يوقع على الاعلان ويعيده الى الطلاب الثلاثة الذين سألنى أحدهم ان كنت سأذهب الى الرحلة فقلت اننى لم أقرر بعد ٠

ما ان ذهب الطلاب حتى واصل الرجل حديثه ٠ وللحظة بدا أن الدكتور قاسم قد أخذ بوجوده وأنه نسي تماما أنه جالس فى الغرفة ٠ قال الرجل :

ـ يعنى مثلا لو سيادتك أعطتنى جدول المحاضرات وأسماء المحاضرين سأتمكن من ٠٠

ـ الجدول معلق فى الردهة ، عليه أوقات المحاضرات وأسماء المحاضرين ٠

تطوعت بارشاد الرجل الى مكان الجدول ٠ تبعنى فأوصلته ثم تركته لينقل مايخص حفيدته ووقفت أثرثر مع بعض طلاب السنة الرابعة ٠

عندما انتهى من نقل الجدول أتى الى ووقف على بعد خطوات ينتظر أن أنتهى من حديثى ٠٠ لاحظت ذلك فسألته ان كان يريد شيئا ٠ قال :

ـ فى الجدول ليس لدى طلاب السنة الأولى محاضرات يوم الأربعاء ، ولكن نادية تأتى الى الجامعة يوم الأربعاء ٠

ـ نادية في أي قسم ؟

ـ في قسمكم ؟

ـ أعرف انها في قسمنا ولكنى أسأل هل هي في « أولى (أ) أم أولى (ب) أم أولى (جـ) أم (د) أم (و) أم (هـ) » ؟ سنة أولى مقسمة الى ست مجموعات. نادية في أى مجموعة ؟

ـ لا أدرى .

ـ كيف نقلت الجدول ، هناك ستة جداول مختلفة لطلاب السنة الأولى .

تلعثم الرجل ومال على قائلا بصوت خفيض :

ـ اعذرينى يا ابنتى تجاوزت السبعين ، لم أنتبه للأمر ، على أى حال سأنقل الجداول الستة ثم أسأل نادية عن مجموعتها .

واصل حديثه بنفس الصوت الهامس :

ـ أنا في السابعة والسبعين وزوجتى ، جدة نادية، في السبعين ووالد نادية استشهد قبل ولادتها وأمها تغربت لكي توفر لها حياة كريمة ، انها مسئولية يا ابنتى وأنا لا أريد أن أقصر .

كنت على وشك أن أقول كلمات عابرة لطمأنة الرجل قبل أن أتركه وأذهب عندما رأيت فتاة طويلة سمراء تقبل علينا بابتسامة منشرحة ومندهشة بعض الشيء .

ـ أهلا يا جدى ، ما الذى أتى بك الى هنا ؟

كان لنادية وجه أليف لا يخلو من طفـولة تؤكدها بساطة ثوبها وشعرها الأسود الطويل المربوط على شكل ذيل حصان بشريطة دقيقة زرقاء ٠

سأل الجد :

ـ يا نادية ، انت فى أى قسم ؟

ـ « أولى ج » يا جدى ، لماذا ؟

ـ جئت أنقل جدولك لأعرف مواعيدك وأطمئن ، ولكنى اكتشفت أن سنة أولى مقســمة الى مجمـوعات كثيرة ٠

اكتسى وجه البنت بجدية مفاجئة تحولت تدريجيا الى تجهم ولمحت دمعة تترقرق فى عينيهـا وهى تقـول باحتجاج :

ـ ولكن ياجدى ٠٠

قاطعها :

ـ لـكن ماذا ؟ أريـد أن أعـرف كل شىء لأحميك وأرعاك كما يجب ٠٠

عضت البنت على شفتها السفلى ثم أعلنت بشـكل مفاجىء :

ـ عن اذنك ياجدى ، عندى محاضرة ٠٠

ابتعدت البنت خطوات ثم استدارت فى اتجاهنا ، قالت :

ـ بالمناسبة ياجدى هناك رحلة الى بور سعيد وأريد أن أذهب •

ـ الى بور سعيد ؟

ـ نعم •

ـ لا يا نادية ، لا داعى للرحلات ، لا داعى •

ـ ولكنى يا جدى أريد أن أذهب ، سأذهب !

تركتنا البنت أما الجد فمال علـى وسـألنى بنفس الصوت الخفيض :

ـ وهل ستذهبين أنت ؟

ـ لا أدرى ولكن اطمئن حتى ان لم أذهب سيذهب عدد من زميلاتى المعيدات وبعض الأساتذة أيضا •

ـ ما دامت فى رعايتـكم يجب أن أطمئن •• نعم يجب أن أطمئن ، ثم انها رحلة الى بور سعيد فرصـة لنادية تعرف بلدها وأيضا ••

كان الرجل الآن يواصل كلامه بصوت هامس كأنما يحدث نفسه •

ـ نعم تعرف بلدها وأيضا ترى شـيئا من الأرض التى حارب فيها أبوها واستشهد من أجلها •

تركت الرجل وعدت الى حجرة الدكتور قاسم لأستمع الى ملاحظته على رسالتى ٠

وعندما غادرت الكلية بعد ذلك بساعتين كان الرجل جالسا على كرسى من الخيزران بجوار عم عبد القادر وكانا يتسامران ٠ قال الرجل مفسرا :

ـ قلت انتظر نادية حتى تنتهى من دروسها لنعود معا ، نحن نسكن بعيدا والطريق طويل ٠

غادرت الكلية وأنا أفكر فى رحلة بور سعيد ٠ استقر رأيى على الذهاب قلت لنفسى : فرصة للراحة وأيضا لكى أشترى صابون سائل للشعر وشرابات نايلون ٠

١٩٨٧



صفصافة والجنرال

(الى محسنة ...)

ـ أرسل الجنرال فى طلبك .

همس لى زميلى وهو يمد لى يده بالبرقية . تحدثنا همسا ونحن نقف فى الخيمة الملحقة بمنصة العرض . لم نكن نرى لا الممثلين ولا الصغار الذين يفترشون أرض الزقاق ولكننا كنا نسمع الحوار والهمهمات والتعليقات .

« ولنحتكم الى الملكة ! » وضعت تاج الكرتون المذهب على رأسى وانتظرت حتى كرر الممثل الآخر العبارة : « نعم لنحتكم الى الملكة ! » صعدت الدرجات الأربع التى توصلنى الى المسرح والذى كان فى الأصل ظهر سيارة نقل .

وقفت بين زميلى وتطلعت الى الوجوه النحيلة والعيون اللامعة كانوا هم أيضا يتطلعون الى ويصفقون . ملت بجذعى أرد التحية ثم واصلنا العرض .

كامل : يا جلالة الملكة لقد حفظت عهد هذا الرجل فى غيابه . صنت بيته وأطعمت زوجته وأولاده . وعندما عاد يا جلالة الملكة ، لم يلقنى بالأحضان ، لم تدمع عيناه امتنانا بل أراد قتلى يا مولاتى . انه جاحد وحقود وقلبه فاسد كثمرة متعفنه .

عبد الله : كذاب ! انه يكذب يا مولاتى ، اسـمعينى ،
أنا سأحكى لك الحكاية من أولها • جاءنى كامل يوما
وقال يا عبد الله لك عنـدى بشرى • أترى هـذا
الجبل العالى ؟ لو وصلت اليه وصعدت الى قمته ثم
نزلت من سفحـه الآخر وسرت فى الطريق الـذى
أمامك ستلتقى عجوزا معها سلال ذهبية • لو ألقيت
عليهـا السـلام سـتعطيك سلة • وهـذه السـلال
يا عبد الله سلال سحرية أن تضع فيها قرشا تجـده
مائة قرش وان تضع رغيفا تلق مائة رغيف •

الملكة : هل قلت له ذلك يا كامل ؟

كامل : نعم يا مولاتى ، قلت :

عبد الله : هو قال وأنا صدقت • تركت أرضى وبيتى
وأولادى وسافرت • سـبع سـنين يا مولاتى وأنا
أبحث • بلى حذائى وتشققت قدماى وضعف بصرى
وعشش الحزن فى قلبى • سبع سنين وأنا أسـير
وحيدا بلا ولد أتعكز عليه ولا زوجة تؤنس وحشة
أيامى • سبع سنين ولم أجد شيئا ، أى شىء •

كامل : لأنك حمار ، وهذا ليس ذنبى !

عبد الله : لقد خـدعنى كامل يا مولاتى ثم سرقنى •
عدت الى بيتى ، فماذا وجدت ؟

كامل : وجدتنى ربيت الأولاد وزرعت الأرض وعليت البيت ، أتنكر ؟!

عبد الله : عدت فوجــدته أخذ أرضى وبيتى وزوجتى وأولادى ٠

الملكة : وما الذى تريده الآن يا عبد الله ؟

عبد الله : أريده أن يخرج من بيتى ويدفع لى تعويضــا عن ثيابى التى بليت وجسدى الذى شاخ وقلبى الذى انحنى كزهرة ذابلة ٠

كامل : انه يهذى يا جلالة الملكة ٠

الملكة : الصلح خير يا عبد الله ، الســلام نعمة من نعم الله يا كامل ٠ انتما اخوة ٠ أحبا بعضكما ، تعاونا فى الخير ٠

كامل وعبد الله : فى صوت واحد : كيف ؟!

الملكة : انت يا عبد الله تساعد كامل فى زراعةالأرض، وأنت يا كامل تعطى عبد الله طعاما ومأوى ٠

عبد الله : هذا ظلم !

كامل : مستحيل ، لقد أراد قتلى يا مولاتى فكيف أسكنه دارى ؟!

الملكة : أعطه كوخا فى الحقل ٠

كامل : لا يمكن !

عبد الله : لقد سرق منى كل شىء ولا بد أن يعيد ما سرق وأن يدفع لى تعويضا ٠

كامل : لم أسرق شيئا ٠ الأرض أصبحت لى لأننى زرعتها ، والبيت صار ملكى لأننى عليته ووسعته ، والزوجة والأولاد من حقى لأننى أطعمتهم ورعيتهم ٠

الملكة : أحبا بعضكما ، عيشا معا ٠ الصلح خير ، هذا حكمى ألا تقبلانه ؟!

كامل وعبد الله : فى صوت واحد : لانقبله ! (يتوجهان الى المشاهدين)هل تقبلونه أنتم ؟
الصغار : لانقبل !

كامل وعبد الله والملكة : اذن ما الحل ؟

الليلة ، كما فى الليالى السابقة ، كان الصغار كحبات الذرة فى المقلاة يتقافزون حماسا وقد اتسعت عيونهم واشرأبت أعناقهم وارتفعت أيديهم مطالبين بحقهم فى الكلام ٠

وقف صبى له وجه قمحى وعينان خضراوان وشعر أجعد ٠ كان يلبس جلبابا ذا خطوط طولية يؤكد نحول جسده ويكشف عن عظام صدره البارزة ٠ قال : « ساعة الظهر عندما ينام كامل تحت الشجرة يقيده ٠٠٠ »

قاطعه الأطفال محتجين لأنهم لا يسمعون جيدا • بدا الولد كلامه من جديد بصوت أعلى وايقاع أبطأ : «ساعة الظهر ، عندما ينام كامل فى الحقل ، تحت الشجرة ، يقيده عبد الله الى جذعها ويتركه يجوع حتى يعرف أن الله حق ، ولا يفكه الا عندما يتوب ويقول « حرمت » !».

هتف صبى آخر بصوت جهورى : « هذا الكلام لا يصلح ، عندى حل أفضل ! » كان له وجه مستدير وعينان دعجاوان وشعر كثيف فاحم السواد • طلبت منه أن يقف لكى يقدم حله • قال بنبرة احتجاج « أنا واقف ! » ضحك الأطفال أما هو فلم يضحك وانهمك فى اسكاتهم ليسمعوا ما يقول : « يختبىء عبد الله فى الذرة حتى يمر كامل فيطخه ويخلص ويخلصنا منه لأنه حرامي وكذاب وخائن للأمانة ! »

« لدى حل آخر ! » كان طفل ثالث يكرر هذه العبارة دون توقف وهو يرفع كلتا يديه • كان داكن السمرة له ملامح دقيقة وجسد صغير ونحيف ، تلتمع عيناه اللوزيتان بألق خبيث تؤكده ابتسامة يجتهد فى اخفائها • وعندما وقف ليتكلم بدا قميصه ، رغم نحافة جسمه ، ضيقا عليه كأنما كان لأخ أصغر أو له هو نفسه قبل عامين أو ثلاثة •

قال :

ــ كامل غلطان ، وعبدالله غلطان، والملكة غلطانة!

توقف برهة وهو ينظر الى زملائه وكأنه يتأكد انهم فهموا ما قاله • واصل :

ـ كامل حرامى لا يصون حقا ولا صديقا ، صح ؟

هتف الأولاد مؤمنين على كلامه •

ـ صح !

ـ وعبد الله أهبل لأنه ترك أرضه وبيته وأولاده ليبحث عن سلة عجيبة غريبة لا توجد الا فى حكايات الشاطر حسن ، مظبوط ؟!

هز الأولاد رءوسهم وكرروا وراءه :

ـ مظبوط !

ـ أما الملكة فميزانها ظالم وتساوى بين صاحب الحق ونهابه ، سليم ؟

ـ سليم !

ضحك الصبى فانتقلت العدوى الى الصغار الذين بدأوا هم أيضا يضحكون •

ـ الحل أن عبد الله ينسخط حمار ، لأنه حمار ••• والملكة تنسخط قطة سوداء بلا ظل يتجنبها الناس لأنها روح شريرة •• أما كامل فينسخط عقربة صفراء •• والحكاية كلها ، حكاية الحمار والقطة السوداء

والعقربة الصفراء تضاف لكتاب القراءة الرشيدة للاستفادة .

كان الصغار الآن مستشارين يموجون حماسا ويطلقون الضحكات الصاخبة والصيحات الجذلى .

★★★

« لماذا يطلبنى الجنرال ؟ » تساءلت وأنا أسير فى الزقاق الضيق الموصل الى بيت أم أحمد التى أنزل فى ضيافتها . طرقت الباب ففتحت دون أن تسأل ، كانت تعرف خطوتى وطرقتى .

جلستا متجاورتين على الحصيرة ، هى تربع ساقيها ولا تستند الى شىء ، تعالج « وابور الجاز » لتصنع لنا الشاى وأنا أسند ظهرى الى الجدار وأمد ساقى أمامى أدلكهما لأنهما تؤلمانى .

ـ اليوم أرسل الجنرال فى طلبى .

ـ لماذا كفى الله الشر ؟

لم يكن هناك ما أقوله . قالت وهى تواصل تسليك الوابور :

ـ ياخبر بفلوس ..

ـ رأيك ان أذهب ؟

ـ وما الذى تخسرينه ؟!

ثم وهى تنجح فى الاشعال وتضع ابريق الصاج الكحلى فوق « الوابور » :

ـ لن تخسرى شيئا ، كيف كان العرض الليلة ؟

أم أحمد تستيقظ دائما قبل الشروق ، تجمع السبخ من الحظيرة ، وتحلب وتنقل جرار الماء وتخبز لحساب المعارف والجيران . ثم تعود من مهامها الصباحية لتجدنى نائمة فتوقظنى بنفس العبارات دائما : « ناموسيتك كحلى ، بعد قليل يؤذن لصلاة الظهر ! » أنظر الى ساعتى فأجدها لم تتجاوز العاشرة .

عندما عادت أم أحمد اليوم وجدتنى جالسة على الحصيرة أصفف شعرى وأنتظر عودتها .

ـ ليس للبلد حديث سوى لقائك بالجنرال .

ـ من قال الخبر ؟

ـ ألم تصلك البرقية عن طريق القسم ، فكيف لا تعرف البلد ؟!

واصلت تجديل شعرى فى حين كانت أم أحمد تعد كوبين من الشاى لكى نتناولهما معا كعادتنا كل صباح .

ـ النساء سيأتين لرؤيتك بعد صلاة الظهر أما الرجال فسيجيئون بعد صلاة العشاء .

قلت دون أن أرفع رأسى وأغمس كسرة خبز فى الشاى :

ـ مازال لديهم عشم فى الجنرال ؟!

ـ ليست المسألة عشما ، ولكنهـا محـاولة ، ماذا سنخسر ؟!

لم يخل البيت من الناس حتى كاد الليل ينتصف ولم تتوقف أم أحمد عن تسليك الوابور وايقاده وتضييف الزوار ٠

وعنـدما ذهب الجميع كان أمامى كـومة كبيرة من الأوراق متباينة الأحجام والخطوط مكتوبة بالحبر السائل والحبر الجاف وأقلام الرصاص وأقلام الكوبيا : عرائض وشكاوى وتظلمات والتماسات ورسائل ٠

آتت أم أحمد بشـالها الأسـود العتيق وصرتها لى جميعا فى صرة كبيرة عقدتها باحـكام ٠ ثم أخـرجت ثلاثة أرغفة من القفة وربطتها لى فى منديل وهى تتمتم « الطريق طويل » ٠

ـ هل تذهبين بهذا الثوب ؟

ـ الآخر مقطوع ٠

ـ نامى والصباح رباح ٠

أيقظتنى فى الفجر ٠ وجدتها استعارت لى ثوبا من القطيفة السوداء وشالا قطنيا أزرق ٠ لبست الجلبـاب ووضعت الشال على رأسى وحملت الصرة الكبيرة بيدى اليمنى والأخرى الصغيرة بيدى اليسرى وخرجنا ٠

كان اثنان من زملائي وثلاثة من شباب القرية ينتظرون لمصاحبتنا الى محطة القطار • كان يصعب تبين وجوههم فى تلك الساعة البنفسجية ولكنى كنت أعرفهم • فى الطريق التقينا بآخرين لا أعرفهم ، نساء ورجال ، هم أيضا جاءوا لمصاحبتنا • وعندما غادرنا القرية الى السكة المحاذية للنهر والتى توصلنا الى البلدة حيث محطة القطارات كنا قد أصبحنا موكبا يثير دبيب أقدامه تراب الأرض ويعلو لغطه على زقزقة العصافير •

ثم وصلنا المحطة ووقفنا ننظر وقد تبددت ضبابية الصباح المبكر وأصبح كل شيء واضحا ومحددا فى ضوء الشمس القوية : اسم البلدة على لافتة تعلو الرصيف ، الوجوه السمراء ، الأجساد النحيلة ، الأقدام الحافية ••

ظهر القطار ينفث دخانه فى الهواء وتعالت أصوات المودعين وتداخلت عباراتهم :

ـ يا ست صفصافة ، أمانة عليك تبلغى •

ـ هلكنا الغلاء •

ـ الماء شحيح •

ـ الكهرباء مقطوعة •

ـ العيال انسقمت من المشى فى الشتاء والشمس ، سكة المدرسة سفر !

ـ والمستشفى فى آخر الدنيا •

ـ يا ست صفصافة أمانة تقولى وتبلغى ٠

ـ مع السلامة ، مع ألف سلامة ٠

استدرت لأضع قدمى على سلم القطـار فسمعتهم ينادون على ٠ التفت فرأيتهمـا ٠ صغيران يلهثان من طول الركض وقد بلل العرق وجهيهما وشعرهما ٠ صاح أحدهما :

ـ يا ست صفصافة ، ألا تذكرينني ؟

كان الولد الأسمر النحيـل الذى اقترح أن يتحول كامل الى عقربة صفراء ٠

أجبت مبتسمة :

ـ طبعا أذكرك !

ـ أريد منك علبة أقـلام ملونة ، وهذا صـديقى يريد برتقاله ، هل ستنسين ؟

ـ لن أنسى ٠

★★★

- ٢ -

« ما الذى يريده الجنرال منى ؟ » .

سبقته باقة ورد عليها بطاقة تحمل اسمه ثم جاء . وكانت المرة الأولى التى أراه بشخصه . كان يلبس زيا عسكريا أزرق . بحريا موشى بزهور اللوتس البيضاء المطرزة وبكفيه قفاز أبيض من الجلد الرقيق الناعم ويمسك بعصا رفيعة من الأبنوس لها مقبض من ذهب . كان نحيفا وقصيرا له وجه أمرد مستدير وبشرة بيضاء مشربة بحمرة خفيفة . وكان شعره الكستنائى الناعم مصففا بعناية يقطعه فرق من الجانب الأيسر . جلس مضموم الساقين ومشدود القامة على طريقة العسكريين وتحدث بطلاقة وثقة .

قال ان لى حضور البحر ورقة الفراش . قال ان هيئتى ، ملامح وجهى وجديلتى وطولى واستقامة قدى تذكره بذلك التمثال العبقرى للفلاحة الذى يرتفع على التلة الخضراء ويشرف على مدخل العاصمة . قال : « باختصار أنت رائعة ، وأداؤك فى المسرح فذ ، وأنا معجب بك ! » ثم دق بعصاته على الأرض ايذانا بانتهاء الزيارة وذهب .

بعد شهر وصلتنى باقة أخرى ، أكبر ، من الورد . ثم جاء يعرض على الزواج . قال : « ترفضين لأننى

متزوج أم بسبب هذا الولد الذى يقولون انك على علاقة به ؟ » قال : « هذا الولد لا شيء ، لاشيء أطلاقا مجرد مخرج مسرحيات لا يسمع باسمه الا حفنة من المهتمين . أما أنت فصغيرة وجميلة وموهوبة حين أتزوجك تصبحين زوجة الجنرال ، هل تفهمين معنى ذلك ؟! »

دق بعصاته على الأرض تماما كما فعل فى المرة السابقة ولكنه لم يبتسم وهو يمد يده لمصافحتى .. ثم لاحظت خطوته العرجاء .

فى اليوم التالى جاءنى يوسف ، سأل :

ـ ما الذى يريده ؟

ـ الزواج !

ـ قبلت ؟

ـ رفضت !

ـ وهل تقبلين الزواج منى أنا ؟

ـ وهل أصلح أنا لك ؟

صاح ضاحكا :

ـ أنت مجنونة !

كدت أقول له اننى أحبه وأريده وأشتهيه وأحتاج اليه « ولكنك يوسف » كدت أقول ، يوسف الذى يقرأ فى الكتب ويسافر بالطائرات ويتحدث الى الكبار كأنه

منهم • « أنت يوسف ، وأنا صفصافة » كدت أقول له ، صفصافة ابنة أبى الذى عاش ومات حافى القدمين لم يشتر حذاء وربما لو تمكن لما وجد زوجا بحجم قدميه الخشنتين اللتين لم تعرفا سوى طين الحقل وتراب السكة •• ولم أقل الا

ـ يوسف ، أنا لا أصلح لك !

أطلق القطار صفيرا عاليا أعقبه صوت حاد وممتد من احتكاك عجلاته بالقضبان مع الابطاء المتزايد لسرعته • حاذى القطار رصيف المحطة ثم توقف • نزل ركاب وصعد آخرون • ثم انطلق صفير آخر مؤذنا بمواصلة الرحلة •

« ترى لماذا يريدنى الجنرال ؟ »

أربعون سنة مرت على ذلك اللقاء الأول به • كنت فى التاسعة عشرة وهو فى الأربعين أو تجاوزها • قال : « نجمى صاعد وأنت رائعة كفراشة » ضحكت للكلام الغريب ولكننى كنت خائفة أريده أن يذهب ، ذهب •

بعد عامين تزوجت يوسف • كان يصيح ويوبخ وهو يلقى لى بتعليماته ساعة التدريب على عمل جديد وكنت أنفعل واحتد فيبدو وكأننا وعلان تشابكت قرونهما لحظة مناطحة ولكنى كنت أحبه، وكان هو أيضا يحبنى • ونحب المسرح ، ستارته المخملية وخشبته وأضواءه

ورهبة العرض الأول والدمعة المترقرقة التى نرى عبرها المشاهدين وقد قاموا يصفقون لنا بحماس فى نهاية الليلة • كان كل ذلك بهيا وآسرا يمنحنا الثقة والقوة وشيئا ناعما ومبهرا كباقات الورد التى كنا نتلقاها بعد العرض ، جميلة ويزيدها جمالا لمعة ورق « السيلوفان » والشرائط الدقيقة الملونه المعقودة حول الورق وسيقان الورد •

ثم ذهب يوسف ، ذهب بلا قبلة وداع ولا كلمة • كنت ألطم وجهى وأشق ثوبى وأقول : « خانني يوسف تركنى ، كيف ؟ » فيمسكون بى ويكررون : « ومنذ متى يستأذن الانسان ساعة الموت ؟ **خطفه الموت ولم يختر فلا حول ولا قوة الا بالله ! »** •

أرسل الجنرال برقية عزاء واكليل ورد بنفسجى ومندوبا شخصيا الى الجنازة • ثم جاء بنفسه بعد أيام ، **وامتلأ البيت بالحراس والمرافقين • قال : « أقدم** التعازى • قال : « فقدنا فنانا كبيرا » • قال : « ليرحمه الله ويرحمنا جميعا » • ثم دق بعصاته على الأرض وذهب •

بعد ثلاثة أشهر جاء ثانية ولكن مرافقيه وحراسه **بقوا خارج الشقة • قال : « انتهت العدة ، أليس كذلك ؟ » كان وجهه صارما وعيناه خاليتين من أى تعبير ويرتدى** زيه العسكرى المعتاد ويمسك بعصا الأبنوس • فاجأنى

بابتسامة عريضة كشفت عن كل أسنانه وبعض فراغات متخلفة من ضروس مخلوعة ·

ـ كنت أعرف انك ستوافقين ·

ـ أوافق على ماذا ؟

ـ على زواجنا ·

ـ وهل وافقت ؟

ـ ألم توافقى ؟!

زم شفتيه وازداد وجهه صرامة وهو يدق بعصاته على الأرض وينهض ثم يمشي بخطواته العرجاء الوئيدة فى الوقت الذى كان مرافقوه وحراسه يهرولـون الى المصعد والسلم والسيارة والشوارع ·

يطلـق القطار صفيرا متقطعا وحادا وينطلـق فى الأرض لايلوى على شيء فتتراكض الحقول عبر النافذة وكأنما بها مس من جنون ، تركض هربا من شيء يلاحقها أو سعيا الى شيء تلاحقه ·

« ترى ما الذى يريده الجنرال منى ؟ »

أفتح منديل أم أحمد وأخرج منه كسرة خبز آكلها ثم أعقد المنديل على ما تبقي ·

بعد تلك الزيـارة الأخيرة لم أره الا مرة واحـدة فقط · كانت قـد مرت بضـع سنوات وكنت أقف على

خشبة المسرح أرد تحية الناس بعد انتهاء العرض • كانوا يصفقون وأنا أحنى لهم رأسى وأبتسم ثم رأيته • كان جالسا وحده فى الصف الأول تحيط به المقاعد الخالية عن يمينه ويساره ، رأيته ثم رأيت الآخرين الجالسين خلفه كأنما للمرة الأولى • كانوا يملأون المقاعد المخملية الحمراء ، الرجال بالحلل الداكنة والقمصان البيضاء وربطات العنق الحريرية الملونة ، والنساء بملابس السهرة والشعر المصفف بعناية والعيون المرسومة • رأيتهم ثم رأيت السقف المزخرف برقائق الذهب والمقصورات المنقوشة الجدران وعناقيد البللور تتدلى ثريات مضيئة • رأيت ذلك كله ثم لم أره وللحظة خاطفة بدا لى المكان خاليا الا من الجنرال ،جالسا وحده فى ثوبه العسكرى الأزرق وقفازه الجلدى الأبيض يتكىء بكلتا يديه على مقبض عصاته •

وعندما غادرت المسرح كنت أعرف أنها المرة الأخيرة • لم أكن قد فكرت أين سأذهب بعد ذلك ولا على أى خشبة سأقف ولكنى كنت موقنة أننى أترك مسرحهم مرة والى الأبد •

« لماذا يريدنى الجنرال ؟ »

يمضى القطار بنفس السرعة ، يشق الأرض المزروعة على الجانبين ولكنى أعرف الآن انه يقترب من محطة الوصول • فالمكان عابق بالرائحة الرطبة المحملة

باليود والنسمـات الباردة تلمس وجهى برفق وهدير البحر يملأ أذنى ، ليس لأننى أسمعه ـ فضجيج القطار يبتلع كل ماعداه ـ ولكن لأن الرائحة والهواء يحملانه الى فتشهد عيناى أزرقه يموج ويعلو ويضطرم •

★★★

- ٣ -

مددت يدى بالبرقية للضابط فأخذها وراح يقلب فى ملف حتى استقر على صفحة بالذات • نظر الى وجهى ثم الى الملف ثم الى وجهى مرة آخرى• وقال : «تفضلى»•

رافقنى اثنان من الحراس المسلحين الى حجرة معتمة يكسر حدة عتمتها أزرار مضيئة خضراء وحمراء وصفراء • « تقدمى خطوتين ثم قفى » قال شخص لم أتمكن من تحديد مكانه بسبب الاظلام • وقفت فظهرت محتويات جسمى والصرة وخبز أم أحمد فى المنديل المعقود على شاشة تليفزيونية •

خرجت من الحجرة بصحبة الحارسين الى ساحة فسيحة مبلطة يسورها حائط حجرى شاهق الارتفاع غرست بمحاذاته وعلى مسافات متساوية أشجار البرتقال • كان للسور الحجرى دكنة أبواب السجون العتيقة أما الأشجار فكانت رغم صغر جذوعها ودقة أغصانها مثقلة بالثمار البرتقالية تظهر وتختفى بين الأوراق الكثيفة الخضراء •

عبرنا الساحة الى ممر ضيق يقطع مبنى رملى اللون له شكل علبة مستطيلة دخلناه ثم خرجنا منه فطالعتنا فى نهاية الطريق القلعة بهيكلها الحجرى القديم يحجب بنيانها الحصين البحر وراءها •

فى القلعة دلفنا الى قاعة فسيحة مفروشة بالأبسطة الفارسية تغطى جدرانها مرايا كبيرة لكل منها اطار من الفضة المطعمة بالذهب وتتدلى من سقفها ثريات ضخمة من عناقيد البللور • كنت مدعوة على الغداء على مائدة الجنرال •

أوصلنى الحارسان الى المكان المخصص لى حيث وجدت بطاقة تحمل اسمى على مائدة سبقنى اليها أربعة من المدعوين لا أعرف أحدا منهم • كانت الموائد تشكل نصف دائرة تمكن الجالسين اليها من رؤية العازفين أمامهم •

صدحت الموسيقى بالنشيد العسكرى وقام المدعوون وهم يتطلعون فى اتجاه الفرقة ، تطلعت : كان الجنرال واقفا فى مقصورة زجاجية مغلقة تعلو المكان المخصص للعازفين وقد ذهب شعره الكستنائى مخلفا رأسه كرويا ولامعا أما جسده فلم يعد نحيفا كما كان بل اكتسب سمنة جعلته يبدو أقصر قامة •

حرك الجنرال رأسه حركة خفيفة يمينا ويسارا • صفق له المدعوون وهتفوا • ابتسم ثم جلس الى مائدته منفردا خلف الزجاج فجلسوا •

أخذ رجال ونساء فى ملابس مزركشة يروحون ويجيئون بنشاط ملفت حاملين أطباق الطعام : الحساء والسمك واللحوم والخضروات والفطائر والحلوى

والفواكه • وفى الختام دار الرجال يصبون القهوة العربية من أباريق ذهبية وطافت النساء بالعلب الخشبية المطعمة بالصدف يقدمن السجائر •

وصاحب كل ذلك عزف مقطوعات موسيقية جماعية ومفردة واختلطت الأنغام بطرقعات الملاعق الذهبية على صحون الصينى وارتشاف الحساء ومضغ اللحوم وقضم الفواكه وصوت شخص يتجشأ وآخر يتمخط • كانت الوجوه تلتمع بحبات العرق والأسنان تعلك والأنفاس تزداد ثقلا والعيون مثبتة على الجنرال الجالس فى قفصه الزجاجى يأكل وحده •

« ترى لماذا يريدنى الجنرال » ؟

تبعت الحارسين الى ممر ضيق تضيئه مصابيح ليمونية زادها شحوبا انتقالى المفاجىء من القاعة الفسيحة ذات الثريات • ثم بدأنا نصعد على درج حلزونى ضيق لبرج من الأبراج • ولضيق السلم تعذر استمرار الحارسين الى يمينى ويسارى فتقدمنى أحدهما وتبعنى الآخر • صعدنا بلا توقف حتى شعرت بالعرق يتصبب من رقبتى وجبينى ويتخلل منابت شعرى وبأنفاسى تثقل وبالألم يتمكن من ركبتى • توقفت لحظة لأرتاح فتوقفا • اتكأت على حافة طاقة مفتوحة فى الجدار الحجرى • تطلعت عبر قضبان الحديد فرأيت البحر يموج من تحتنا ، يعلو أزرقه ويشب مندفعا الى الشاطىء فى

جموح ، يصطدم بكسارات الموج ، يضرب صوانها فينقدح الرذاذ ويعلو ويتطاير نوارس منمنمة بلا حصر تطرز الفضاء بأبيضها ٠

كان وجهي يقطر عرقا من ضيق البرج ورطوبته الخانقة ٠ واصلنا الصعود حتى وصلنا الى قاعة صغيرة للانتظار ٠ جلست بين الحارسين حتى نودى على ٠

دخلت الى بهو مترامى الأطراف فرأيت الجنرال جالسا فى زيه العسكرى المعتاد على أريكة بيضاء تحيط به الوسائد المغلفة بالحرير زاهى الألوان ٠

عندما اقتربت قام الجنرال لملاقاتى وسار نحوى بخطوته الوئيدة العرجاء يتكىء على عصاته المصنوعة من الذهب والأبنوس ٠ بدا طاعنا فى السن تغطى التجاعيد وجهه ٠ تساءل وهو يصافحنى ويبتسم ابتسامة كشفت عن أسنان لامعة وحسنة التنضيد ولثة وردية صافية ٠

ـ صفصافة ؟

وضحك بشكل مفاجىء فاكتشفت أن صوته أصابه خفوت مبحوح كأنما يصدر عن شخص مريض ٠

ـ تغيرت كثيرا ، شكلك رث ٠٠٠ هل صحيح انك صفصافة ؟!

دعانى الى الجلوس الى أقرب مقعد لأريكته ٠ قال :

ـ العام القادم تحتفل البلاد بالعيد الخمسين لولايتى · انه عيد الناس ، سيرقصون ويغنون وينحرون الذبائح وينثرون الأرز والقمح والورد وسيفيض نهر حبهم لى فى كل قرية ومدينة ·

ابتسم فى غبطة فلاحظت أن أسنانه طقم صناعى · واصل :

ـ عيد جلوسى عيد للناس ، وهديتى لهم فى عيدهم هو ذهابى اليهم ·

الجنرال بلحمه ودمه سينزل من القلعة ليراه الناس رأى العين فيبتهجون بالمشاهدة · أية هدية ··· أية هدية !

أغمض عينيه ثم عاد وفتحهما وقد غللتهما غلالة رقيقة من الدموع :

ـ وأنت ياصفصافة ستأتين معى ، سآخذك معى الى الناس لأنهم يحبونك ،هل صحيح انهم يحبونك ؟

حد جنى بنظرة مباشرة ، قطب جبينه وحرك شفتيه حركة سريعة ومفاجئة كأنما يريد استخراج بقايا طعام من بين أسنانه ثم سكن وجهه وهدأ وأغمض عينيه وواصل :

ـ منذ خمسين سنة وأنا أعمل فى خدمة الناس ، أرعى مصالحهم ، أحمل همهم ، أرسم طريقهم ، أحميهم

حتى من أنفسهم لو ركبهم الشر • منذ خمسين سنة وأنا منشغل بالناس ، لا أغفو لا أغفل، لا أهدأ ولا أستريح• أحمل وحدى هذه المسئولية التى تنوء بها الجبال • أنا جبل يا صفصافة ، جبل غريب ومعجز ، جبل طيب القلب •• ولكن المسئولية ثقيلة جدا ، وفكرت ، فكرت كثيرا وطويلا فى اشراك آخرين معى ثم تراجعت فمن يضمن لى وفاءهم للناس ، من يضمن حبهم وولاءهم • أنا عاشق للناس فمن أين لى بعشاق مثلى ؟

كان الجنرال الآن يواصل حديثه كأنما لنفسه أو للجدران ، بصوت خافت مبحوح مرتعش :

ـ النـــاس أولادى ، أطفال ، يختلفون يتعـــاركون يتصارعون وأنا أبوهم أجمعهم وأنظمهم كالعقد أضمهم كدجاجة تحت جناحى ، أذود عنهم كذئبة • أنا أبوهم الرحيم ، أمهم الحنون ، حاميهم اليقظ ، مظلتهم الواقية• أنا سماؤهم الصحو وشمسهم المشرقة ، أنا ••

ـ أنا ذاهبة !

لم يسمعنى • كان مستغرقا فى حديثه وهو مغمض عينيه وأساريره تختلج تأثرا بما يقول• وبدا على وشك الانخراط فى البكاء وهو جالس فى مواجهتى وقد تهدل كتفاه وصدره وبطنه على عجيزتيه الكبيرتين • ولم تكن قدماه تصلان الأرض فبقيت ساقاه النحيلتان معلقتين فى الهواء كأنهما لطفل أو لدميه •

كررت :

ـ أنا ذاهبة

لم يلتفت · حملت صرتى ومنديل أم أحمد وانصرفت وجدت الحـــارسين فى انتظارى خارج البهو ثم عبرنا الساحة الداخلية فالممر الضـــيق ثم الساحة الخارجية وآخيرا وجدت نفسى منفردة فى الطريق العام ·

قصدت البحر ولما وصلته تربعت على رمال الشاطىء ورأيت الموج يهدر ويعلو ويغمر الشـــاطىء الرملى ثم ينحسر عنه وقد أصـــبح مبللا ورطبا ولينا وداكنا · لمسنى الرذاذ المتطاير ولفنى الهدير وامتـــلأ صـــدرى بالرائحة التى ليس كمثلها شىء وتابعت تحليق النوارس وهى تبتعد عن الماء لتقترب منه ، وطيورا أخرى أصغر ترفرف بأجنحتها بسرعة وعزم وقوة ·

يوسف أول من أخذنى الى البحر وعندما رأيته ركضت اليه فاتحة ذراعى ثم ركضت منه ثم عدت أركض اليه وضحكت حتى سالت الدموع على وجنتى ثم رقصت جذلى ثم مشيت فى الماء الذى غمرنى حتى خصرى ·

قال يوسف :

ـ أنت حورية !

قلت :

ـ أنا صفصافة !

قال :

ـ أنت حورية ·· ولك ذيل سمكة ·· أنظرى ·· أين ساقاك ؟

وكلما طلب منى يوسف أن نذهب طلبت منه أن نبقى حتى رأينا البحر يتلألأ بذهب الغروب وفضة الغسق ثم ظهر القمر هلالا كخط قلم أصفر دقيق على الكحلى الصريح · قال يوسف :

ـ هذا الهلال أنا ·· وأنت ذلك القرص المشتعل الذى غاب الآن فى البحر ليطلع من الجهة الأخرى ·

ضحكت ولكنه لم يضحك وانتصف الليل ونحن جالسان أمام البحر نراه فى صخب أمواجه وايقاعها المنتظم الذى يهدر حولنا وفى الرذاذ الذى يلمس وجوهنا فى رفق ·

مسحت وجهى براحتى ، كان مبللا ، برذاذ البحر أو دموعى · يوسف أول من أتى بى لمشاهدة البحر ، لا أنسى ذلك أبدا ولكن ساعة الرجوع حانت · كشفت رأسى وشمرت عن ساعدى وخلعت حذائى فلامست قدماى طراوة الرمال الرطبة ومشيت الى الماء ولما وصلته ملت بجذعى وملأت كفى وبدأت أغتسل · وعندما

انتهيت قصدت الطـريق العـام وكان وجهى وقدماى ويداى وأطراف ثوبى مبللة بماء البحر ويدى اليمنى تقبض على شـال أم أحمد المعقود على رسائل النـاس وعيناى تبحثان عن محـل أشترى منـه للصبيين الأقلام الملونة والبرتقالية ٠

١٩٨٧

★★★

الجالس فى الحديقة ينتظر

فى البدء لم أنتبه لوجوده اذ كنت مستغرقة فى اللعب مع الصغير : يرمى الكرة فأرفع رأسى أتتبعها وهى تطير عاليا ثم أركض فاتحة ذراعى وأتلقاها وهى تسقط . كان الصغير يقفز ويركض ولا يكف عن الثرثرة والضحك وكنت أنا أيضا أركض مثله وأضحك وان كانت حركتى أثقل وصخبى أقل .

كان قرص الشمس يتوهج برتقاليا فى سماء صافية ينشر أشعته عبر الأغصان المتشابكة للأشجار الكثيرة التى تعمر المكان . ثم رأيته .

رجل طاعن فى السن يجلس على مقعد خشبى قريب يكاد وجهه الرخامى الأبيض يختفى خلف نظارة سوداء كبيرة . كان ضامر الجسد يرتدى رداء داكنا ويتكىء بكلتا يديه على عصا غليظة خشنة ذات عقد كثيرة كأنها فرع قطع لتوه من أمه الشجرة .

رفعت يدى اليمنى بالكرة وقذفت بها بقوة فطارت عاليا وغابت لحظة فى زرقة السماء وكأنها عصفور حلق

حتى أفلت نهائيا من قانون الأرض ثم ظهرت الكرة وهوت بعيدا عن الصغير الذى قال : « كيف أمسك بها وأنت ترمينها بهذه القوة ؟! وواصل تبرمه ولكنى لم أكن أنصت ، كنت أفكر فى الرجل الجالس على المقعد القريب وأتعجب كيف اننى لم ألحظ وجوده من قبل ، كان قريبا جدا ولم أكن بحاجة الا الى الالتفات لأرى ٠

كان يجلس بلا حراك جامد الوجه كأنما صب من حجر ، شاخص فى اللاشىء كأنه فاقد للسمع والبصر ٠ قال الصغير محتجا : « ماما ركزى فى اللعب ، انتى تلعبين الآن بلا تركيز ! » ثم أضاف وهو يحرك سبابته كمدرس « حين تلعبين يجب ألا تفكرى فى شىء آخر ، بماذا تفكرين ؟ »

كدت أنبهه الى الغريب ثم عدلت ورميت الكرة ولكنها لم تعل ، قال الصغير : « يبدو انك تعبت » ، « يبدو اننى تعبت » ٠

أخذ منى الكرة وراح يعدو بها ويرميها عاليا ويركض ليلتقطها أما أنا فجلست على مقعد خشبى آخر فى مواجهة الرجل الذى كان على حاله ساكنا وفمه مزموم تحيط به التجاعيد، يضع يديه المعروقتين الواحدة فوق الأخرى على العصا الغليظة ٠ من أين أتى هذا الرجل ؟ وكيف أتى ؟ وما الذى حمله الى هذا المكان ؟

... هل ينتظر ؟ لابد أنه ينتظر .. ومن هو الذى ينتظره ؟

اعترتنى رجفة مفاجئة . نعم انه ينتظر ، فماذا أفعل ؟ تساءلت فى فزع والخوف يعصف بى كريح عاتية تهب فجأة فتربد السماء وتتلبد وتطبق بأسودها على الأرض. «سنعود الى البيت» الآن ، فورا وبسرعة. سنركض عائدين. نغلق الباب بالمفتاح والمزلاج والقفل ونحكم اغلاق النوافذ ونسدل عليها الستائر السميكة وندخل السرير ونغطى أنفسنا ـ من الرأس الى القدمين ـ بالغطاء الثقيل فلا نرى شيئا ولا يصلنا شيئا . « سنعود الى البيت » .

أحسست بضربات قلبى تعلو وتتسارع وهممت بالنداء على الصغير : درت بعينى أبحث عنه بين الأشجار. لاحظت جذوعها المتينة وجذورها الضاربة فى الأرض تشقها لتنمو فوقها وتشقها لتنمو فى باطنها ، تلتوى وتتشابك وتنتشر . رأيت الجذوع الطالعة الى الأغصان الكثيفة المثقلة بخضرة الأوراق ثم رأيت الصغير يحمل كرته ويركض يرميها بقوة فتطير كأنما ستصل الى القرص البرتقالى فيما وراء الفروع المورقة ثم يجرى ويفرد ذراعيه على اتساعهما لاستقبالها ويشرئب برأسه فى اتجاه الشمس فتسقط أشعتها عمودية عليه فيبدو وكأنه جزء من الشعاع .

اقترب منى الصغير وهو يحتضن الكرة وكان وجهه وشعره وقميصه مبللين بالعرق .

ـ ألم تتعب ؟

ـ لم أتعب ، هل تلعبين معى ؟

ـ ألعب !

ألقيت نظرة خاطفة على الرجل الجالس فى المقعد القريب ثم أدرت رأسى وأمسكت بالكرة ورميتها بعزم . رأيتها تطير ومرة أخرى بدت لى قادرة على الانفلات من قانون الارض .

١٩٨٧

★★★

فى الحجرة الباردة

لم أتعرف عليه رغم أنه حيانى مستخدما اسمى قلت لنفسى : هو الطبيب المعالج الذى سوف يجرى الجراحة ، ليس فى ذلك شك • ولكنه كان ملثما لا يبدو منه سوى عينين حادتين شديدتى الزرقة ويرتدى الأبيض من رأسه حتى قدمه ، يغطى شعره وجزءا من جبينه غطاء رأس وتخفى أنفه وفمه كمامة طبية وفى يديه قفازان من المطاط وفى قدميه أيضا حذاء من المطاط يرتفع الى منتصف قصبة الساق • هكذا رأيته لحظة دخلت الى الحجرة وسرت القشعريرة فى جسدى •

سمعت صرير الباب فالتفت ورأيت الممرضة التى كانت قد استقبلتنى فى حجرة ملحقة وأعطتنى رداء أبيض معقما وخفا لاستبدالهما بثوبى وحذائى • اقتربت منى واقتادتنى من يدى الى سرير ضيق يعلوه كشاف ضوئى طبقى الشكل وساعدتنى على الصعود الى السرير كأننى لن أتمكن من ذلك • ازداد شعورى بالبرودة وبدأت أسنانى تصطك وحاولت أن أقوم جالسة ولكن الممرضة أعادت رأسى الى السرير وفهمت من

نظرتها الحازمة أن على أن أبقى فى هذا الوضع • ذهبت ثم عادت تجر شيئا تحدث عجلاته صريرا • كان حاملا غريب الشكل ، به قضيب أفقى يعلو رأسى بحوالى شبر • أتت بملاءة بيضاء وعلقتها على الحامل فأصبح أمام عينى مساحة بيضاء تحجب عن عينى رؤية ما فى الغرفة بل وجسدى نفسه •

لم يعد بامكانى رؤية الطبيب ذى العينين الزرقاوين ولا الممرضة التى لا تبتسم ولا صاحبة الصوت الأجش التى لحقت بهما وميزت صوتها عن صوت الممرضة •

قال الطبيب الذى أصبح يقف ملاصقا للسرير : « سأعطيك حقنة تخدرك موضعيا • لن تشعرى بشىء • لا داعى للخوف ! »

وضع يده على ركبتى فانتبهت الا انهما كانتا مرتفعتين عن السرير • أردت أن أقول له أن الغرفة شديدة البرودة ولكنى لم أفعل • كان أحدهما المرأة ذات الصوت الأجش أو الطبيب يغرس الابرة فى جسدى • أفلتت منى آهة مفاجئة • آلمتنى ألما شديدا • عاد الطبيب يقول لى كلمات مطمئنة ويؤكد اننى لن أشعر بشىء •

كنت فى نفس الوضع لا أرى سوى الملاءة البيضاء ولكنى أصبحت أسمع حركة الأيدى بين الأدوات المعدنية التى رحت أتخيلها : ملقاط •• مقص •• مشرط ••

هل يمسك بالمشرط ويقطع ·· كيف؟! لا أرى ولكنى أسمع صوتا خافتا كذلك الذى يحدثه حك الظفر للجلد ·· ترى ما الذى يحدث الآن ·· ما الذى يفعلونه ؟ كان الطبيب يتحدث مع المرأة ذات الصوت الاجش باللغة الانجليزية التى لا أعرفها الا لماما · كانا يتحدثان عنى وعن الجراحة ، بدا ذلك واضحا ولكنى لم أتمكن من فهم ما يقولانه · ما هذا ؟ سائل ؟ شعور غريب بأن سائلا يبلل صدرى يخالطه فى نفس اللحظة تشكك فى حقيقة الأمر ·· لا أشعر بشىء ولكن هناك سائل ، على ما يبدو، هل يكون دمى ؟

« اهدئى قليلا ·· لا ألم هناك ، هل هناك ألم ؟ »
كان الطبيب أو المرأة ذات الصوت الأجش تضع يديها على ركبتى اللتين انثنيتا دون أن أنتبه ·· « فكرى فى شىء آخر » قال الطبيب :

أيهما أسهل ؟ هذا التخدير الموضعى أم ذلك التخدير الآخر ؟ يدخل المرء الحجرة الباردة فيرى الطبيب يفرك يديه ويبتسم ·· يتمدد على السرير ثم يأتى الطبيب المخدر ويرشق الابرة وهو يقول « عدى الى عشرة » وقبل أن أصل الى الرقم ستة يأتينى هذا الشعور الغريب المرهق ·· ثم تنسحب الروح ولا شىء ·· لا شىء أبدا حتى يطفو ذلك الألم مع ضوء خافت وفم جاف يريد شربة ماء ورغبة فى البكاء · « لماذا لا ترتخين بعض

الشيء ؟ هل هناك ألم ؟ ! ليس هناك ألم ! » يربت على يدى فأشعر بالانهاك والرغبة فى القيام من السرير • سمعت خطوات وحركة العربة التى ترتج بالأدوات المعدنية وأشياء ترتفع وأخيرا دفعوا بالحامل الذى علقت عليه الملاءة بعيدا • حاولت القيام ولكن الممرضة حالت دون ذلك • قالت ان على أن أبقى عشرين دقيقة فى نفس وضعى لكى أرتاح ••

ساد الحجرة صمت مطبق •• ذهبوا جميعا وبقيت أنتظر حتى عادت الممرضة وأعانتنى على القيام ، « تدريجيا •• ليس مرة واحدة » ببطء أجلستنى على السرير ثم ببطء ساعدتنى على تركه •

قبل أن أغادر الحجرة شاهدت فى سلة من البلاستيك ملاءة غارقة فى الدم ، حولت عينى بسرعة وتبعت الممرضة الى الحجرة الملحقة حيث ساعدتنى على تبديل ملابسى ثم قالت : « الطبيب فى انتظارك » •

دخلت عليه فوجدته خلع لثامه وبدل ملابسه فعاد أليفا كما كان ، سألنى :

ـ هل تشعرين بتعب ؟

ـ •••

ـ ان شعرتى بألم ، خذى المسكن المكتوب فى الروشتة بالاضافة للمضاد الحيوى الذى عليك بتناوله

كل ست ساعات · بعد غد تأتين لأطمئن عـلى الجرح وأغير الضماد ·

شكرته وخرجت وكنت أشعر بتعب شديد وقدرت اننى ما ان ألمح زوجى بقاعة الانتظار حتى انفجـر باكية · عندما رآنى هرول فى اتجاهى ملهوفا يسأل :

ـ هل أنت بخير ؟

لاحظت الشحوب الشـديد فى وجهه ·· ابتسمت وأجبت :

ـ بخير ، الحمد لله ·

أمسك بيدى وانصرفنا فى طريقنا الى البيت ·

اكتوبر ١٩٨٧

★★★

فى ضوء القمر

رأيتهم عبر النافذة المفتوحة ، ثلاثة فى ضوء القمر . الرجل والمرأة كأنهما جسد واحد يتحركان فى بطء ووهن كعادة الطاعنين فى السن . عن يسارهما لاشىء وعن يمينهما أيضا فراغ فاصل ثم البنت الصغيرة وحدها تتبعهما .

كان الرجل والمرأة قد جاءا لزيارة السيدة التى كنت أعمل فى خدمتها . قدمت لهما الشاى وكعكة خبزتها خصيصا للمناسبة ثم خرجت الى الشرفة لأجمع الغسيل . كان الهواء فى الشرفة شديدا كالمعتاد فالبيت يقع فى شارع مطل على شاطىء البحر .

كنت أفك المشابك التى تثبت الغسيل على الحبال وأرفعه قطعة قطعة وأطويه وأضعه فى سلة كبيرة كما أفعل كل ليلة . سمعت صوتا آتيا من جهة السلم . ظننتها قطة ، وعندما تكرر الصوت ، ملت بجذعى لأتحقق . كانت الشقة فى الطابق الأول تشغل شرفتها واجهة البيت ، وتطل من الناحية اليمنى على سلم من خمس درجات تقود الى الباب . لم أتبين شيئا ولكنى

عندما حدقت ، رأيتها • كانت بنتا صغيرة تجلس على الدرج •

ـ ماذا تفعلين هنا ؟

ـ أنتظر •

ـ تنتظرين من ؟

ـ انتظر « ستى » و « سيدى » •

ـ « ستك » و « سيدك » ؟!

ـ نعم انهما عندكم الآن فى زيارة •

ـ ولماذا تنتظرين •• ان كنت تريدين شيئا دقى الباب وابلغيهما بما تريدين واذهبى •

قالت البنت وقد قامت من مكانها ووقفت تحت الشرفة مباشرة •

ـ لا أريد منهما شيئا • هما أحضرانى معهما وقالا يا نادية انتظرى هنا حتى ننتهى من الزيارة • هل بامكانى ان أقطف بعض الياسمين ؟

ـ ألا تشعرين بالبرد ؟

ـ سأتسلى بقطف الياسمين ، لن آخذ كثيرا •

ـ لفى من هذه الناحية • سأفتح لك الباب •

أشرت الى ممر الحديقة الذى ينتهى بباب المطبخ •

ـ ولكن « ستى » و « سيدى » ٠

ـ سأخبرهم انك عندى فى المطبخ ٠

فتحت الباب للبنت التى بدت لى فى الضوء أصغر مما ظننت ٠ كانت فى السادسة أو السابعة ، تلبس جلبابا قطنيا أزرق منقوشا بزهور منمنمة برتقالية ، نحيلة دقيقة الملامح تربط رأسها بمنديل كحلى وتنتعل شبشبا من المطاط ٠

دخلت الى الصالون وملت على سيدتى وأخبرتها أن البنت عندى فى المطبخ فقالت سيدتى للضيف الذى كان له وجه تملأه التجاعيد ٠

ـ لماذا لم تقل لى يا عمى أن معك الشغالة ؟

ـ تركناها تلعب على السلم ٠

ـ ستأخذها سنية عندها فى المطبخ لأن الطقس بارد والهواء شديد بالخارج ٠

قالت زوجة الضيف وهى تنقل الشال الصوفى الأسود ذا الورود الحمراء الكبيرة من على ركبتيها الى كتفيها وتتدثر به ٠

ـ فعلا الطقس بارد ، اقفلى الشباك يا سنية ٠

كان للمرأة جذع صغير وكتفان ضيقان وردفان

هائلان يجعلان التفاوت فى الحجم بين الجزء الأعلى من جسمها والجزء الأسفل ملفتا ٠

ـ حاضر ٠

أغلقت النافذة وعدت الى المطبخ ٠ وضعت ابريق الشاى على الموقد ونصبت الطاولة المخصصة لكى الملابس وأوصلت المكواه بالكهرباء ٠ قالت الصغيرة :

ـ هل أساعدك ؟

ضحكت وأنا أسألها ان كانت تعرف كيف ٠ قالت دون أن تضحك أن سيدتها تقول انها تستطيع أن تقوم بكل شىء ولم يعد ينقصها الا تعلم الطهى ٠٠ صببت لها كوبا من الشاى وضعته أمامها مع قطعة من الكعكة التى صنعتها ٠

نادت سيدتى وطلبت منى أن أخبر البنت أن « سيدتها » و « سيدها » سيغادران ٠ فقامت البنت مهرولة للحاق بهما وذهبت أنا الى الصالون لكى أرفع الأكواب والأطباق ومنافض السجائر ٠ كانت الحجرة معبقة بالدخان وهواؤها خانق ٠ فتحت النافذة على مصراعيها فهب هواء البحر باردا وقويا ثم رأيتهم وهم يبتعدون فى ضوء القمر ٠

١٩٨٧

يوم ليس كباقى الأيام

لم يكن يوما كباقى الأيام · انتبه لذلك وهو بعد فى فراشه مغمض العينين · لم يكن بحاجة لقطع ورقة الأمس عن نتيجة الحائط لينتبه · غادر فراشه بنشاط كأنه بعد فى الأربعين ودخل الحمام وترك الماء ينسكب على رأسه وجسده أطول من المعتاد · كان مبتهجا ومستبشرا حتى كاد يغنى بصوت مسموع ·

ليس يوما كباقى الأيام · سيعد ابريق الشاى الذى سيتناوله مع قطعتين من البسكوت وهو يتصفح الجرائد· ولكنه لن يجلس الى المكتب كعادته كل صباح ليقرأ ويكتب ويصنف « فيشات » البحث ولن يطالع جزءا من رسالة مكتوبة بخط اليد على ورق مسطر أو منسوخة على الآلة الكاتبة على ورق أبيض ·· فقد أعطى لنفسه أجازة تليق بيوم استثنائى · سيذهب طبعا الى المحاضرة فهذا حق مقدس لطلابه لا يملك المساس به ·· أربعون سنة من عمرى فى التدريس وأنا أحفظ هذا الحق وأصونه كبؤبؤ العين · ملأته العبارة ارتياحا ورضى ثم فكر وهو يبتسم ويرشف الشاى انه يليق اليوم

بالذات أن أقف فى المدرج محاضرا وفى القاعة نفسها التى شهدت كل شىء . فى البدء يقف الشاب على استحياء وتعلو ضربات قلبه وهو يواجه جمع الطلاب الذى يتعين عليه أن يجذب انتباههم ويلهم عقولهم . كان وجلا يتعثر فى الكلام فى تلك المحاضرة الأولى . راقب صورته فى شبابه وابتسم : شاب أسمر نحيل فى خريف عام ١٩٤٥ يدخل على شباب فى مثل سنه تقريبا ليحدثهم بما يقنعهم انه يصلح . فى البدء يكون القلق والارتباك ، بعد ذلك تأتى الثقة والألفة والقول المتدفق والنظرة الآسرة فى عيون الأولاد والبنات يتطلعون بنهم وامتنان . فى البدء تكون الخطوة الحيية ثم تدب القدم العفية فى طريقها الأكيد .

انتهى من شرب الشاى ثم دخل الى حجرة نومه ليخلع روب الحمام ويرتدى ملابسه . أخرج من أحد الأدراج ملابس داخلية جديدة ، فض غلافها الورقى ثم فتح الدولاب وأخرج رداء المناسبات : البدلة الكحلية وقميصا أبيض مطويا بعناية وربطة العنق المفضلة .. عريس فى الرابعة والستين . ضحك للفكرة ثم عد لها . عريس يحتفل بعيد ميلاده الأربعين ، الميلاد الأغلى والأهم . صفف شعره ثم ألقى نظرة على نفسه فى المرآة فملأه شعور بالارتياح .

صنع لنفسه قهوة عربية ثم حملها الى حجرة مكتبه لاحتسائها . لم تكن الحياة فى الجامعة أبدا بالأمر

السهل . ليست حياة البحث والدراسة هى ما يعنيه . القراءة والكتابة والبحث والتوجيه هى المتعة بعينها تماما كمتعة هذه المكتبة التى تغطى جدران الحجرة من السقف حتى الأرضية . متعة قراءة كتاب ملهم والانشغال بما ورد فيه ومحاورة أفكاره ، ليست هى الصعوبة . الصعوبة أن تحتفظ بمكانك وباحترامك أيضا وألا تغضب أحدا من أطراف تتنازع وتتصارع وتنهش بعضها أحيانا كالكلاب .

فى الأول بدا الأمر مستحيلا وضاغطا ومنهكا . فى عام ١٩٤٦ كانت المظاهرات فى الشارع تهتف بسقوط اتفاقية صدقى ـ بيفن وبالجلاء التام أو الموت الزؤام وحرم الجامعة يموج بحماس الشباب : شيوعيين ووفديين واخوان مسلمين . وأنا أشاهد كل شىء من النافذة أريد المشاركة لأنى مقتنع بضرورة اسقاط الاتفاقية وتحقيق الجلاء التام ولكنى تحملت كالقابض على جمرة . قلت لنفسى يا ولد ان تلحق بهم تفقد مكانك فتحمل لتبقى .. ولكنى أبدا لم أقم بشىء أخجل منه أو أندم عليه ، لم أتعاون مع ادارة أو سلطة ضد ما أعتقد انه الصواب .. كنت دائما أفعل مايمليه ضميرى حتى وان بدا ذلك مقلقا بعض الشىء أو سببا فى المتاعب . فى عام ١٩٥٩ عندما اعتقل بعض زملائى ، ذهبت لزيارة زوجاتهم وأبلغتهن أسفى لما حدث وفى عام ١٩٨١ أيضا عندما أمر السادات بطرد ٦٤ أستاذا

جامعيا كان بينهم ثلاثة من زملائى فى الكلية ، ذهبت لزيارة أسرهم وعبرت عن تعاطفى ٠

سكب لنفسه فنجانا آخر من القهوة ٠ لم يكن الأمر سهلا ولعل أقسى اللحظات كانت لحظة ١٩٥٦ ـ العدوان الثلاثى على مصر ٠ يجتاحون سيناء ٠ ويقصفون بور سعيد وأنا هنا فى عاصمة الامبراطورية أدرس فى جامعة لندن فما العمل ؟ بعضهم أخذه الحماس وقطع بعثته وغادر الى مصر فى فورة غضب جريح ، بعضهم اندفع الى مشاركة المعارضة الانجليزية فى تظاهرها الصاخب ضد حكومة المحافظين ٠ وكان على أن أضبط غضبى وحماسى وأحتمل ٠ واصلت دراستى حتى حصلت على الدكتوراه وعدت سالما الى أرض الوطن لكى أفى بالدين وأقوم بالمهمة المقدسة ، مهمة التدريس فى الجامعة التى تحملت من أجلها أن أقبض على جمرة من نار ٠

حفيدى شادى له أسلوب غريب فى طرح الأسئلة ٠ لا أفهم أبناء جيله على أى حال ، لا أفهم حبهم للموسيقى الغربية الصاخبة ولا ولعهم بألعاب المصارعه الواردة من الشرق الأقصى ولا تلك الطريقة المباشرة ـ الغليظة أحيانا ـ فى طرح الأمور ٠ قبل شهور سألنى : « يا جدى ، ما الذى حققته فى حياتك ؟ » أمسكت بيده واقتدته الى حجرة المكتب ٠ » هذه الكتب كلها من تأليفى ، وهذه الرسائل جميعها أشرفت عليها ٠ ولى

عشرات التلاميذ الذين أصبحوا الآن أساتذة جامعيين ٠٠ ما رأيك ؟ » قال « وما قيمة ذلك يا جدى ان كنت تسكن هــذه الشــقة الصغيرة ولا تملك سيارة ولا تذهب الى أوروبا للاصطياف كل سنة ! » كدت أقول له أنه ولد تافه ومتخلف ثم أحجمت ٠ ليس هو المسئول ، أبوه لم يحسن تربيته ٠ نويت التحــدث مع أبيــه فى الأمر ثم نسيت ٠

لماذا التوقف عند هذه التفاصيل المزعجة فى يــوم كهذا ؟! شادى طفل لا يفرق بين الغث والثمين ٠ غدا يكبر ويقــدر ٠٠ الآخــرون يقــدرون ٠ وليس فقط تلاميذى ولكن زملائى أيضا الذين غالبــا ما يفصحون عن دهشتهم من قدرتى على الاحتفاظ بصداقة الجميع ٠ حتى فى مجلس الكلية عندما تتعــكر النفــوس وتندفع الكلمات قاطعة وحادة كالسكاكين ويبدو وكأن الأساتذة سوف يمسكون بتــلابيب بعضهم البعض ويتشــابكون بالأيدى ، يعيد تدخلى الهدوء الى الجلسة ، ليس حــل المشكلة هو المهم دائما ولكن تهــدئة النفوس ومراضاة الأطراف المتنازعة حتى يمكننا التعايش بلا صدام ٠٠ لكل رأيه وحقه فى التشبث به ، تلك قناعة راســخة لدى والســابقون قالوا ــ وعــلى حق ــ ان الاختــلاف لا يفسد قضية ٠

نظـر فى ساعتـه وقرر أنه حان وقت النزول الى الجامعة • حمل كتبه وغادر الشقة • يستغرق الطـريق عشرين دقيقة سيرا على القدمين وهـو لا يركب الا فى حالة المطر أو شعوره بالاعياء • دائما يغادر بيته ويسير فى خط مستقيم حتى يصل الى تمثال نهضة مصر ومنه الى الحرم الجامعى • ولكنه يوم ليس كباقى الأيام • كان منشرحا ومقبلا يرى تمثال مختار وأشجار الطريق المزهرة وهو يمشى بخطى نشطة قبلته الحرم والقبة • يترنم بنشيد حماسى يحبه حتى وصل الى الأبيات الأثيرة لديه فراح يكررها مرات عديدة :

كـل مصـرى ينـادى أنـا ملـك لبـلادى

قـلبى يمينى فـؤادى روحـى فدا أوطـانى

ملأه الشجن وطفرت من عينيـه الدموع ، ومع ذلك فلم يكن حزينا بل منشرحا الى حد الابتهاج •

عندما دخل الكليـة ، حيـاه الطـلاب كالمعتاد فرد تحيتهم بأفضل منها وفى طريقـه الى مكتبـه مر بقاعة الدرس التى يحاضر فيها فاستوقفته حركة غير عادية • كان عمال من غير السعاه يدخلون ويخرجون منها حاملين فى أيديهم ما يدعو للدهشة : سلم ، سطل ، آنية زرع• أطل برأسه من الباب فوجد القاعة تتلألأ نظافة • واضح انهم قاموا بغسـلها من الأرضية الى السـقف مرورا بالجدران والنوافذ • وكان أحدهم الآن يقـوم بصف

آنيات مزروعة بالنباتات المنزلية على حافة النوافذ فى حين كان آخر يمد غطاء من الجوخ الأخضر الجديد على مكتب المحاضر ·

علت ضربات قلبه وهو يهرول خارجا يكاد لا يصدق ما رأى · لم أتوقع ذلك أبدا · صحيح أن العميد وأحد الوكيلين من تلاميذى وآخرون أيضا من أعضاء هيئة التدريس ولكن لم يرد بخاطرى أنهم سيتذكرون اننى اليوم ـ اليوم تحديدا ـ أتم أربعين عاما فى التدريس بالكلية · كان مستثارا الى حد الاضطراب ومع ذلك فقد جلس فى هدوء كأنه متواطىء فى الاعداد للمفاجأة وفى كتمان تفاصيلها حتى اللحظة المقررة ·

فى الثانية عشرة الا خمس نظر الى ساعته · ترى هل يأتى العميد والوكيلان لاصطحابى الى المدرج أم أجدهم فى انتظارى بقاعة المحاضرات ؟ دقت ساعة الجامعة الثانية عشرة : أربع دقات متلاحقة تعلن تمام الساعة ثم اثنتى عشرة دقة يعقب كل واحدة منها لحظة صمت · بقى فى مقعده خمس دقائق أخرى · اذن ينتظروننى هناك · حمل كتبه وتوجه الى القاعة · مد يده ليفتح الباب ويدخل فاعترضه شاب لا يعرفه ، سأله بغلظة :

ـ ما الذى تريده ؟

ـ ما الذى تريده أنت ، أنا الأستاذ المحاضر !

ـ الدخول ممنوع ، الوزير والضيوف فى الداخل٠

هذا الشاب مؤكد مختل ٠٠ ما الموضوع ؟ وهل هو أيضا جزء من المفاجأة ؟! كاد يصرخ فى الشاب لولا قدوم أحد السعاه أوضح للغريب انه أستاذ بالكلية وفتح له الباب ٠

كان الطلاب يملأون القاعة ولكن مقعده خلف المكتب لم يكن شاغرا ٠٠ كان أربعة أشخاص يجلسون فى مواجهة الطلاب ولم يكن يعرف منهم سوى العميد ٠ أفسح له أحد زملائه مكانا بالصف الأول فى المقاعد المخصصة للطلاب سأل بصوت هامس : « ما الموضوع ؟ » فأجابه زميله وهو يميل عليه هامسا فى أذنه : «الدكتور آشتون ، أستاذ زائر وهو على ما يبدو على درجة كبيرة من الأهمية لأنه ـ كما ترى ـ جاء فى صحبة الوزير والسفير » ٠

كاد أن يعبر لزميله عن استيائه لأنهم لم يبلغوه لا لدعوته ولا حتى لاستئذانه فى استخدام القاعة وقت محاضرته ولكنه أحجم ٠

جلس فى هدوء ينصت الى محاضرة الأستاذ الأجنبى حتى انتهى ثم حيا زملاءه وانصرف عائدا الى البيت ٠

غـربة

كان البرد قارصا تزيد من حدته ريح غربية والمطر ينهمر بلا انقطاع فى خطوط متصلة ومائلة ما أن تصل الأرض حتى تتحول الى طبقة رقيقة متجمدة زلجة كأنها زجاج · وبسبب الضباب والعتمة المبكرة بدت أضواء المصابيح كرءوس عفاريت قائمة بلا أجساد ·

كنت أسير بحذر وبطء وأقبض بيدى اليمنى على الرسالة فى جيبى وأحتفظ بالمظلة ـ رغم المطر المنهمر على رأسى ـ مغلقة (عندما فتحتها ملأتها الريح وصارت تدفع بها وبى فى حركة غير محكومة)· واصلت الطريق الصاعدة من مبانى كليات الجامعة الى مساكن الطلاب ·

دفعت بالباب الزجاجى الكبير فأحدث ذلك الصرير المربك الذى لم أنجح فى التعود عليه رغم انقضاء شهور على وجودى فى المكان · دخلت وتوجهت الى المصعد ، ضغطت على الزر وانتظرت ولما جاء صعدت الى الطابق السابع عشر حيث الحجرة ·

أدرت المفتاح فى الباب ودخلت · أضـأت المصباح

ووضعت حقيبتى والمظلة وأمسكت بالرسالة · تأملتها لحظة قبل أن أفضها كما أفعل فى كل مرة ـ كانت الرسالة من حميدة أختى · عرفت ذلك من خطها على المظروف وطريقة كتابتها للعنوان وطابع البريد الجوى الأزرق المستطيل يحمل صورة اهرامات ثلاثة عسلية اللون وختم بريد قنا ·

فضضت المظروف وقرأت الرسالة وأنا واقفة ثم جلست وقرأتها مرة ثانية · وعندما انتهيت من ذلك وضعتها على المكتب وخلعت معطفى وحذائى المبلل وغسلت وجهى ويدى واستبدلت ملابسى ثم اتجهت الى المطبخ لأصنع لنفسى كوبا من الشاى بالنعناع ·

الحجرة التى أسكنها تقع فى نهاية ممر ضيق وطويل على جانبيه حجرات صغيرة كحجرتى تسكنها طالبات مثلى · تتسع كل حجرة منها بالكاد لسرير مفرد ودولاب خشبى للملابس بأحد ضلفتيه طاقة مربعة يتحول بابها عند فتحه الى مسطح خشبى يستخدم كمائدة صغيرة للكتابة أو الأكل أو الزينة · وكل غرف السكن بنفس الحجم والشكل والأثاث ولا تختلف الا فى المواقع · الصف الأيمن يطل على العشب والصف الأيسر على المبانى · فى الصيف كان يبدو أن ساكنى الجناح الأيمن أكثر حظا ولكن فى الشتاء ـ قالت لى احدى الزميلات ـ ينتفى الفرق لأن الثلج يغطى كل شىء ·

وبالممر توجد دورة مياه واحدة الى اليمين عندما أتجاوزها أنحرف يمينا فأجد باب المطبخ المشترك وهو مطبخ فسيح به موقدان ومائدة كبيرة مستطيلة تحيط بها الكراسى • وبالامكان اعداد وجبة وتناولها فى المطبخ أو الجلوس الى المائدة للحديث مع الآخرين واحتساء الشاى •

انتظرت أن يغلى الماء ثم أضفت اليه الشاى وفرع من النعناع الجاف الذى حملته معى من البلد • عدت بكوب الشاى وأمسكت بالرسالة •

كتبت حميدة : « القرية كانت ستغرق فى فتنة أهلية بسبب « جنابك » و « جنابى » ، ولكن « جنابك » فى المقام الأول • وخذى عندك الواقعة على أن تعملى خيالك فى استكمال المشهد مستفيدة بمعرفتك بالأماكن والشخصيات : جاءنا خطيب جديد فى المسجد وهو وافد على القرية ويبدو أن أحد أولاد الحرام همس فى أذنه بشىء ضد الوالد فاذا بالخطيب يقول فى خطبة الجمعة ان كلكم راع وكل راع مسئول عن رعيته ، وان الرجل الذى يرسل ببناته الى البلاد البعيدة بدعوى العلم يخطىء ويذنب لأن فى ذلك خرقا للشرع والدين فالمرأة مكانها البيت وان اقتضت الضرورة غير ذلك فلابد من أن يلازمها محرم •

« وما ان انتهت صلاة الجمعة حتى شاع الخبر فى

القرية : « شيخ المسجد الجديد هاجم الشيخ عبد الحكيم لأنه أرسل ببناته للدراسة فى بلاد بره · (والقصد جنابك) وفى بلاد جوه (والقصد جنابى) » وقبل أن يؤذن لصلاة العصر أو يصل الخبر الى الوالد كان اخوالك الثلاثة قد حملوا أنفسهم (والمتحدث الرسمى المسئول عن الحكاية بتفاصيلها هو عمتك فهيمة التى ما زالت تتابع كافة الوقائع والأحداث من موقعها المتميز على فرشتها) ذهب اخوالك الثلاثة الى الخطيب وعاتبوه وقالوا له انه أخطأ لأن الشيخ عبدالحكيم أول من تخرج فى الأزهر من أبناء القرية وهو عالم فى أمور الدنيا والدين ولو نزل الانتخابات فسيأخذ أصوات المحافظة كلها ·· ثم حملوا أنفسهم وجاءوا الى الوالد وقالوا له ان المسألة لم تعد تحتمل وأن عناده قد جعل من يسوى ومن لا يسوى يسىء اليهم ونصحوه أن يعيد البنتين التى فى « بلاد الخواجات » والتى فى جامعة أسيوط · وان العرسان على أتم الاستعداد · وأضاف خالك عبدالباسط ونحن نعرف الأصول ياشيخ عبد الحكيم لو كان أحد أولاد أخيك يريد أيا من البنتين قطعا هو أحق ·· ان لم يكن فأولادنا حاضرون ؟

« غضب أبى وقال ان شيخ الجامع جاهل ولا يهمه فى شىء ولكنه لا يفهم سلوكهم وان البنات ستواصل تعليمها وأن سمية وعلية وكاملة ـ ما ان ينهين الدراسة الثانوية ـ حتى يذهبن الى الجامعات « بره » و « جوه »!

« وأبوك عنيد كما تعرفين » قالتهـا عمتى فهيمة وهى تتنهد « خرج اخوالك غاضبين ورفضوا شرب الشاى » والكلام مازال للمتحدث الرسمى ، ولـكن طبعا الضفر لا يطلع من اللحم ، قالت عمتك ، ولم يقل اخوالك شيئا عما حدث وابقوا الخلاف سرا عائليـا ، وطلبت منى عمتى أن أكتمه رغم اننى كنت قد سـمعت جـزءا من تفاصيله وأنا فى جامعة أسيوط من احدى الطالبات هى أخت زوج ابنة عم زبيدة عبد النبى جارتنا وقد حكت لى الحكاية نقلا عن أمها عن زبيدة عن عمتى !! »

ورغم الدموع التى شعرت بها تملأ عينى الا اننى كنت أضحك وأنا أقرأ رسالة حميدة وأستحضر عمتى فهيمة التى لا تغادر فراشها منذ أكثر من سـتة أشـهر (قبل سفرى بشهرين كانت عمتى تحمل ماجور العجين وتنزل على السلم فلمحت ثعلبـا يحـاول خطف احدى دجاجاتها فهرولت لتطرده فسـقطت بالماجـور وكسرت ساقها) وتتجمع لدى عمتى ـ رغم عدم قدرتها عـلى الحركة ـ كل أخبار القرية فتتكفل هى بارسـالها الى الجهات الأربع !

وكانت الرسالة مازالت بيدى عندما سمعت صـوتا يكرر اسم « سمير » . كان الصوت لامرأة انجليزية ـ كان هذا واضحا ـ لكن الاسم كان عربيا أم هل تخيلت ذلك بسبب انهماكى فى قراءة رسالة حميدة ؟ أصخت

السمع وانتظرت لحظة فسمعت الكلمة مرة ثانية • فهل يمكن أن يكون هناك شاب عربى بالبيت ؟ ولم أكن قد التقيت بأى شخص ـ رجل أو امرأة ـ يتكلم العربية منذ وصولى الى الجامعة •

فتحت باب الغرفة وخرجت • فى نهاية الممر وأمام باب حجرتها كانت سوزى وهى طالبة بدينة بيضاء لها شعر كستنائى طويل تتحدث مع فتاة لا أعرفها وتحمل بين ذراعيها كلبا بنيا صغيرا من ذلك النوع الذى يتسم بقوائم قصيرة جدا وأذنين كأذنى الماعز • ألقيت عليهما بالتحية ثم :

ـ سمعت أحدا يقول سمير •• هذا اسم عربى •

قالت سوزى وهى تضحك :

ـ أعرف ، أعرف !

ـ اسم من ؟

ـ انه الكلب « سمير » ، أنظرى كم هو لطيف !

حملته الى وجنتها وأخذت تداعبه بحك وجهها فى جسده :

ـ انه فعلا لطيف ، هل هو كلبك ؟

كنت الآن أتوجه بالسؤال للفتاة التى لا أعرفها فقالت سوزى :

ـ لا ، انه كلب صـديقى « فالى كاليلى » ، حين يأتى سأعرفك به ٠

وقفت دقيقتين أخريين للمجاملة ثم عدت الى الحجرة ٠ اذن فسمير ليس سوى الكلب ! أما صاحبه فيبدو هنديا ـ من اسمه ـ ولكن من يدرى لعله يعرف شيئا من اللغة العربية ، ألم يسم كلبه « سمير » ؟ لبست قميص نومى وتمددت فى السرير وأمسكت برسـالة حميـدة ورحت أقرأ فيها ٠

★★★

لم التق بفالح الخليلى بعد ذلك الا واستحضرت معه ذلك اليوم الذى قالت لى فيه سوزى ان سمير « لفـالى كاليلى » وأننى ظننته طالبا هنـديا ، كنت أذكـر ذلك وأضحك ٠

بعد تلك الواقعة بيوم واحد تعرفت به ٠ كان فالح شابا عراقيا يدرس بنفس الجامعة وبسبب الاختـلاف الشديد فى التخصص ـ هو يدرس التاريخ القديم وأنا أدرس علوم الحاسب الآلى ـ لم نلتق أبدا ولم يعرف أى منا بوجود الآخر وكان فالح قد قضى بالجـامعة سـبع سنوات حصل فيها على الماجستير والدكتوراه وكان الآن يستعد للعودة الى العراق فى نفس الوقت الذى ينتظر فيه صدور رسالته فى كتاب ٠

تكررت دعوة فالح لى على الغـداء والعشـاء ورغم وعيى بعدم ارتياح سـوزى للأمر الا اننى كنت أقبـل دعوته اذ كانت حاجتى ملحة للحديث مع شخص عربى حتى لو كان هذا الشخص هو فالح · لم يكن فالح وسيما ولا جذابا ولم يكن يتمتع بحضور مميز أو لماحية خاصة ـ لاحظت ذلك كله تماما كما لاحظت صـوته الخـافت وايقاعه البطىء فى الحديث والذى لم أكن أعرف ان كان طبعا فيه أم كان مكتسبا من الغربة وقلة استخدامه للغة العربية ـ ومع كل ذلك وجدتنى أرتبط بفـالح وأتشبث بلقاءاتى به التى كانت تثير فى حالة من المرح والحماس فأثرثر وأضحك وألقى النكات والقفشـات والتعليقات الساخرة كأننى بين اخوتى فى البلد ·

أدهشنى فالـح حين قال لى ان اسـم أمه فاطمـة · صرخت :

ـ غير معقول !

لم يفهم فأوضحت له أن أمى أنا أيضا اسمها فاطمة ! ولما كتبت لحميـدة أختى عن ذلك علقت ساخرة : وما العجب فى ذلك لو قمنا باحصاء لوجدنا ربع نساء العرب فاطمات ونصف رجالهم محمدات ! »

قال فالح سأصف لك أمى فلما بدأ يفعـل ضحكت وقلت له أن يكف لأنه يصف أمى أنا فقـال : « ولكن أمى عراقية ، تلبس عباءة سوداء ترفعها على رأسـها

فتغطيها من شعرها الى قدميها فهل تلبس أمك عباءة سوداء ؟

وضحكت أكثر وأنا أقول :

ـ تلبس أمي عباءة سوداء !

ـ وهل لها وشم أخضر تحت شفتها السفلى ؟

قلت :

ـ ووشم أخضر تحت شفتها السفلى !

ساعتها بدأ فالح يضحك هو أيضا ويقول :

ـ ينقصك أن تدعى أنه لكى تصلى الى قريتك عليك ان تركبى القطار المتجه من العاصمة جنوبا وتنزلى الى البلدة الواقعة فى أحضان النهر وتنتقلى بالمعدية التى تنقل الناس ودوابهم ثم تصلى الى الشاطىء الآخر حيث النخل والبيت .

وبدا للحظة ونحن نضحك أننا نلعب وأن الحقائق اختلطت بالأخيلة . ولم أعد واثقة ان كان فالح يتحدث عن قريته الواقعة بالقرب من البصرة أم عن قريتى بمحافظة قنا ، وان كان النهر هو النيل أم شط العرب والنخيل نخيل البصرة أم صعيد مصر .

بعد أيام اتصل بى فالح تليفونيا وطلب منى أن أنتظره لأمر ضرورى . وعندما جاء طلب منى أن أغمض عينى ففعلت ، ولما فتحتهما وجدت كتابه بين يدى .

كان الغلاف جميلا ومصقولا يحمل اسمه وصورا لتماثيل آشورية قديمة . فتحت الكتاب قرأت الاهداء المطبوع : « الى سمير الذى لولاه لما استطعت اتمام هذه الرسالة » .

ــ مبروك يا فالح . هذا يعنى انك ستسافر قريبا .

قال :

ــ بعد أسبوعين .

ــ نهائيا ؟

ــ نهائيا !

هل ارتبكت للخبر أم كان الذى أربكنى هو الاهداء ؟ صدمنى الاهداء ولكنى لم أجرؤ على التعليق . لو استشارنى قبلها لنصحته بألا يفعل ولكنه فالح ، صديقى صحيح ولكنه يختلف عنى فى كل شىء . غمرتنى حالة من البؤس والاكتئاب كتبت رسالة طويلة لحميدة ولكنى عندما انتهيت منها وقرأتها وجدتها لا تصلح فمزقتها . قد تظن حميدة اننى وقعت فى حب فالح وهذا ما لم يحدث .

فى اليوم التالى سألت فالح ما الذى سيفعله بسمير . عرضت عليه أن يتركه لى . لم أكن أحب الكلاب ولكنى شعرت أن بامكانى أن أفعل ذلك لأجله . قلت :

ــ ان كانت سوزى تريده أعطه لها ، ان لم تكن فاتركه معى وسأطمنك عنه فى الرسائل .

قال :

ـ وهل يخطر ببالك أن بامكانى تركه ؟!

ـ وهل ستأخذه معك الى العراق ؟!

ـ طبعا • لقد أعددت كل شيء • سأرسله قبلى لأننى سأتوقف أسبوعا فى باريس • لقد اتفقت مع شركة الطيران بشأن سفره وأرسلت لأخى ثامر فى بغداد ليتسلمه ويرعاه حتى أصل •

ـ ولكن يا فالح ألن يبدو ذلك غريبا ؟

ـ وحتى لو بدا غريبا • لقد أصبح سمير جزءا من حياتى وعلى الناس أن تقبل ذلك •

بعد أسبوعين ودعت فالح وعدت من المطار بقلب مثقل وزادنى ضيقا أن بيت الطالبات الذى أسكن فيه كان شبه خال • كان اليوم أحد ومعظم من فى البيت خرجن لقضاء عطلة نهاية الأسبوع •

جلست فى الحجرة تغمرنى الوحدة • فكرت فى المدة التى عرفت فيها فالح فأدهشنى انها لم تتجاوز ستة أسابيع ، فلماذا بدت لى أطول من ذلك ؟!

ـ ٣ ـ

ماثيو يسمينى نفرتيتى وأحيانا شهرزاد • فى البداية استغربت ذلك كثيرا واختلطت دهشتى بالسرور والآن ذهبت الدهشة ولكن السرور بقى •

عندما التقيت به للمرة الأولى استوقفتنى وسامته ـ فله جسد ممشوق كجسد راقص ووجه جميل القسمات تميزه عينـــان زرقاوان عميقتان ـ واستوقفتنى أكثر حيوية هائلة تنسحب على كل ما يفعـــل ويقول وتتبدى حتى فى الطريقة التى يصافحنى بها ، ويضغط بقوة على يدى فتنتقل الى شحنة من الحماس المضطوم ٠

ولما كان ماثيو أيضا يدرس علوم الحاسب الآلى فقد صرنا نتناول غداءنا معـــا فى مطعم الجامعة ونتبـــادل التعليقات الساخرة ونضحك ٠

فى عطلة نهاية الأسبوع دعانى ماثيو لمرافقته للتزلج على الجليد ٠

قلت :

ـ ولكنى لم أفعل ذلك أبدا ٠

قال :

ـ لماذا ؟

ـ لأننى لم أشاهد الثلج الا عندما جئت الى هنا ٠

ـ ألا تسقط الثلوج فى مصر ؟

ـ راجع معلوماتك فى الجغرافيا !

قال باستغراب :

ـ أكيد لا تسقط الثلوج فى مصر ؟

ـ أكيد ٠

ـ غريب !

كان ماثيو مندهشا للأمر وكنت مندهشة لاندهاشه ومع ذلك فقد صحبته يوم الأحد عصرا بعد أن قال لى ان الأمر ليس صعبا وانه سيعلمنى كيف ٠ قلت ونحن نلبس الزلاجات :

ـ ولو سقطت ودق عنقى ؟!

قال :

ـ لن يحدث !

ولكنى كنت متهيبة يلجم حركتى خوف شديد من التعثر والسقوط ٠ أحاول أن أقلد ماثيو ولا أقدر ٠ وأخيرا جلست على الأرض وبدأت أخلع الزلاجة وأعلنت :

ـ لا أستطيع ٠ سأراقبك وأنت تتزحلق ٠

ولكنه قال اننى سأتجمد من البرد وانحنى ليخلع الزلاجة ٠

بعدها شعرت كأن حملا قد أزيح عن كاهلى فانطلقت أركض بعيدا عن المساحة المخصصة للتزحلق وراح ماثيو يركض ورائى ٠٠ صنعت كرة من الثلج وقذفته بها ففعل نفس الشىء ، ركضنا ولعبنا وضحكنا ، حتى بدا المكان الذى لم يكن فيه سوانا مرتعا لفريق كامل من

الأطفال . وكنت أشعر الآن بالدفء يسرى فى جسدى ووجهى وأطــرافى وأرى ذلك فى وجنتى ماثيــو المتوردتين .

قلت له وأنا أجذبه من يده :

ـ تعال معى سوف أصنع لك كـوبا من الشــاى بالنعنــاع . الشــاى من بقالة الجـامعة والنعنــاع من قريتنا .

تبعنى ماثيـو الى بيت الطــلاب وصعدنا الى الطابق الســابع عشر . تركته فى الحجـرة وذهبت الى المطبخ وأعددت كوبين من الشاى بالنعناع ثم عدت . كان ماثيو قد خلع معطفه وحذاءه وجلس على المقعد الوثير فوضعت الكرسى الخشبى فى مواجهته وجلست . ناولته الشــاى وأنا أتعجل أن أسمع رأيه فيــه .. انتظــر قليــلا ثم ارتشف منه مرة ثم أخرى وحرك رأسه وقال :

ـ غريب !

ـ ألا يعجبك ؟

ـ لا أدرى ، لا أظن !

فكرت أن أعرض عليــه كــوبا آخر بدون نعنــاع ولكنى لم أفعل ..

قلت :

ـ اسمع يا ماثيو أريد أن أحكى لك عن قريتى ،

عن أبى الشيخ عبد الحكيم ، وأمى فاطمة واخواتى وعمتى ، بالذات عمتى أريد أن احكى لك عنها .

وبدأت أحكى ، هل أسرفت فى التفاصيل ونسيت وجود ماثيو وحملنى الحديث حتى انتفت حقيقة اننى موجودة فى هذه الحجرة الضيقة بالطابق السابع عشر ببيت طلاب فى جامعة انجليزية ؟ انتبهت الى أن المقعد الذى كان يجلس عليه ماثيو قد أصبح شاغرا ولم أنتبه متى غادر المكان ، وكيف أو متى لبس حذاءه ومعطفه وفتح باب الحجرة وانصرف .

بدلت ملابسى وأطفأت النور ودسست نفسى فى السرير وأنا أفكر أن على الابكار فى الاستيقاظ صباح الغد للحاق بالمحاضرة .

١٩٨٦

رأيت النخل

● طال الشتاء فلم أعد قادرة على الانتظار • لبست معطفى القديم وربطت رأسى بمنديلى الصوفى ونزلت الى الشوارع أقطعها وأتوقف عند الشجر ، أنظر وأتحقق • وعندما تفشل عيناى فى رؤية شىء على الفروع الجافة أمد يدى أجس وأتخسس• أحيانا كانت يداى تتوقفان ويخفق قلبى ثم أكتشف أن ما وجدت ليس هو المنشود بل مجرد عقدة على فرع جاف • ولكنى كنت واثقة اننى سأجدها ، أقصد الكرويات الصلبة الدقيقة التى يخدعك لونها فى البداية فتظنها لا شىء ولكنك لو دققت النظر وجدتها كروية ورمادها ليس رماديا ولا جفافها جفافا • وان تتابعها وتنتظر تكبر وتتفتح وتكشف لك عن أخضرها الكامن •

كنت أبحث عنها عندما رآنى ذلك الزميل ، قال :

ـ فوزية ، ماذا تفعلين فى الشارع فى هذا البرد الملعون ، كل الناس تلزم بيوتها ؟

قلت :

ـ أبحث عن البراعم !

فهتف :

ـ والله انك مجنونة يا فوزية !

كان يمزح ، أذكر بوضوح ان صوته كان ضاحكا وان النظرة فى عينيه كانت دافئة وودودة .

وفى نهاية يوم قضيته أبحث عدت الى بيتى خائبة أتساءل الى متى ؟ ساعتها تذكرت زهرة الصبار التى حملتها لى عمتى فاطمة من البلد وكنت قد وضعتها بجوار الباب ونسيتها . وعندما تذكرت قلت لنفسى : لابد انها ماتت فأنا لم أسقها منذ عدة شهور ولكنى قمت لأراها . كان طينها قد جف وتشقق وأصبح فى لون البن الأشقر ، وعودها يبس واصفر رغم انه نما وطال وكانت أوراقها ذات الحواف الابرية على حالها ناهضة تتفرع من الساق عريضة وتنفتح الى أسفل رفيعة ومدببة . كانت صبارة عمتى تستوى على سوقها خضراء ، رويتها .

أحببت الزرع وصرت أزرع فى آنية من فخار فى علبة فارغة ، فى كوب ، أى شىء يصلح للزرع أملأه بالطين وأثبت فى العمق اللازم نواة ثمرة ، أو فرعا أخضر ، وأروى .

أيامها لم يقل أحد اننى مجنونة ولكنهم قالوها بعد ذلك يوم حملوا لى خبر وفاة ابن عمى :

ـ مات ابن عمك يا فوزية

ـ مات ؟

فلما اكدوا الخبر طلبت منهم ان ينتظروا لأصحبهم لتقديم واجب العزاء • رأونى أقرفص أمامهم وأملأ علبة فارغة بالطين وأرشق فيه عود ريحان وأثبته بالضغط المتكرر بقبضتى على الطين حتى يمسك بالفرع تماما ويحتضنه ويتماسك ثم غمرته بالماء وقلت :

ـ الآن بامكاننا ان نذهب •

رأيتهم يضربون كفا بكف وسمعتهم يقولون « جنت فوزية وعوضنا على الله » ولم افهم لماذا قالوا ذلك ، واستغربت أكثر عندما سمعت أحدهم يهمس « فوزية تقلد الاغنياء الذين يزينون بيوتهم بالنباتات ! » استغربت لأنه من قريتنا ويعرف • نحن فلاحون ، صحيح ان النساء فى عائلتنا الصعيدية لا يخرجن الى الحقول للفلاحة ولكن الفلاحة هى حياتهن التى يفتحن عيونهن عليها ، ويغمضن ساعة الموت عيونهن عليها أيضا • وانا اذكر ان بيتنا فى القرية كان على سطحه نعناعة وفى قاعه صبارة وببابه نخلة • واذكر ان ابى رحمه الله كان يقول ان النخلة شجرة مباركة أنعم الله بها على عباده وكرمها بذكرها فى القرآن ، وان النبى

صلوات الله عليه قال : أكرموا عماتكم النخل • وانه سمى النخل عماتنا لأنها خلقت من فضلة طينة آدم وانها تشبه الانسان، خلقت من ذكر وأنثى ، طويلة ومستقيمة القد وجمارها على رأسها ، كعقل الانسان فى رأسه ، ان اصابه سوء هلكت •

كان ابى يوصى اخوى بالنخل كما كانت أمى توصينى كل فجر وهى تلقى تعليماتها اليومية بكنس الدار واطعام الدجاج ان أسقى النعناعة ، عندما كنت أنسى ـ كنت دائما على عجلة من أمرى أؤدى تلك الواجبات قبل الذهاب الى المدرسة ـ كانت تغضب ويعلو صوتها موبخة : «حرام عليك يابنيتى ، هذا فأل سيىء ، ربنا يمد فى عمر ابيك ويبقى الدار عمارا » ولكن الله لم يمد ، لا فى عمره ولا عمرها • حتى اخواى ذهبا فاصبحت انا ـ بعد ان اقمت فى القاهرة ـ كالمقطوعة من شجرة وبدا أننى نسيت النعناعة والصبارة والنخلة ، وكل شىء •

ثم جاءت عمتى فاطمة لزيارتى وضمتنى الى صدرها وبكت على خراب بيتنا الذى انطفأت ناره وجفت صبارته • ثم كفكفت دمعها وتربعت على البساط الأسيوطى وفتحت السلة التى حملتها معها للزيارة • قالت « أحضرت لك رغفانا خبزتها وتمرا من نخلة ابيك وكسرت لك فرعا من الصبارة التى فى دارنا ومدت

عمتى لى يدها بالصبارة وهى تقـول والدموع مازالت فى عينيهـا : « الصبارة التى فى دارنا كسرتهـا لى امى من صبارتها يوم تزوجت وانتقلت الى بيت زوجى ، هذه اذن صبارة جدتك ،وجدة جدتك ، ربنا يبارك فيك يا فوزية يا بنيتى ويحفظ لك الدار عمارا »

ذكرتنى عمتى ولما تذكرت زرعت فقال الناس عنى مجنونة ٠

فى العمل أيضا يتهامسون وراء ظهرى ٠ وفى مرة قالت لى زميلتى

ـ انظرى يا فوزية الى يديك ٠

ففهمت أنها تشير الى الخطوط السوداء تحتالأظافر، قلت « هذه ليست وساخة ، انه طين متخلف من الزرع الذى أزرعه » ٠

قالت وهى تربت على كتفى :

« لا يليق لا يليق أبدا وانت موظفة ! »

لا أفهم ما الذى يسىء زملائى عندما أزرع٠ المكان الذى نعمل فيه معتم وقديم تساقط طلاء جدرانه ونسج العنكبوت خيوطـه فى الزوايا وعششت فيه الحشرات وأنا واثقة أن الفئران لها جحور فيه تتركها فى المساء والليل وتسرح بين المكاتب بلا ضابط وكل يوم أحمد الله انها لم تقرض بعد أيا من أوراق الملفات التى فى

عهدتى : الملفات الرمادية القديمة المصفوفة على رفوف خشبيــة متآكلة يصعب معرفة لونهــا الأصلى ٠ وحتى المساحة المستطيلة التى أمام المبنى والتى نشير اليهــا « بالحديقة » يغطيها طفح المجارى فــلا نستطيع دخول المبنى أو الخروج منه الا بالسير الحذر على خمسة احجار متجاورة تشكل جسرا الى عتبة الباب ٠

لم أقصر مع زملائى ٠ عندما وجدت الوضع عــلى ماهو عليه زرعت ثلاث شجرات من الياسمين الهنــدى وتعهدتها فلما نمت وتكاثفت أوراقها حملتها الى المكتب ووضعتها متجاورة فى الشرفة الوحيــدة التى بالمبنى ولكن زملائى لم يلتفتوا لجمال الياسمين حتى عندمــا أزهر مع انهم التفتوا للطين تحت أظافرى ٠

فى عملى لا يفهموننى وفى الحى أيضــا ٠ سمعتهم بأذنى يقولون فوزية المجنونة التى تلقى بنفسها على نوى التمر كـأنه جنيهــات الذهب ٠ وهم يستغربــون سلوكى فالواحــد منهم يأكل البلحــة ويلفظ النواة ، يبصقها من فمه فتسقط بعيدا أو يبصقها فى يده أو يرميها بعد ذلك بطول ذراعه فتسقط أبعد ٠ أركض لألتقطها وأخبئها فى جيبى العميق وعندما أرجــع الى البيت أضعها على قطنة مبللة أربعة أو خمسة أيام ، كل يــوم أتعهدها وأتابعهــا وهى تنتفخ وتلين حتى ألمس بيدى طراوتها فأعرف أن الوقت قد حان ٠ بعد ذلك أدفنها فى الطين وأغمرها بالماء ٠٠٠ وأنتظر ٠

كنت أتمنى أن يكون بيتى فسيحا تحيط به أرض أزرعها ويحزننى أنه يتكون من حجرة واحدة وأن شرفته الوحيدة ضيقة الى هذا الحد ولا تتسع لكل ما أزرع. فى الماضى كنت أضع أصص الزرع على سور الشرفة ولكنى عدلت عن ذلك لأن الصغار العابثين كانوا يرمونها بالحجارة . أول مرة وجدت أصية زرع محطمة والعود المزروع فيها مكسورا ذابل الأوراق فكرت فيهم ولكنى قلت لنفسى أن بعض الظن اثم فلما تكرر الأمر تأكدت، وتأكدت أكثر عندما أخذ الصغار يضايقوننى وأنا عائدة الى البيت أحمل صفيحة أو صفيحتين من تلك الصفائح الكبيرة التى تستخدم فى حفظ الجبن الأبيض أو الزيتون ـ كان عم متولى البقال يعطيها لى لكى ازرع فيها وعندما وجد اننى لا أشترى منه الصابون المعطر والجبن المستورد المغلف بأوراق فضية وذهبية غضب واستاء ولم يعد يعطينى الصفائح ، ذلك رغم تأكيدى له اننى لا أشترى هذه الأشياء لا منه ولا من سواه لانها غالية وراتبى قليل ـ عندما كان عم متولى يعطينى الصفائح كان الاولاد يمشون ورائى ويزفوننى ويقولون :

المجنونة راجعة وماسكة فى ايدها صفيح .

عقل ما فيش ، مخ ما فيش .

مخ فالصو وعقل صفيح .

كان سلوكهم يحزننى فأشعر بغصة فى حلقى ورغبة

فى البكاء الا أننى لم أكن أبكى بل أنحنى ألتقط أول حجر فى الطريق وألقيه عليهم وأنا أسبهم ٠

وفى مرة من هذه المرات ظهرت لى أم سليمان المرأة البدينة ذات السن الذهبى واعترضت طريقى وهى تضع يديها على ردفيها الكبيرين ٠ قلت لها معتذرة :

ـ أنا آسفة يا ست أم سليمـان ، لم أقصد الاساءة لكن سليمان والأولاد الآخرين سبونى ٠ وأيضا يا ست أم سليمان بالأمس كسروا آنية الزرع التى وضعتها عند مدخل البيت ٠

فاجأتنى ضحكتها ولكنى واصلت :

ـ انت أم سليمان ، تقومين برعاية سليمان وحمايته أليس كذلك ؟! اعتبرينى أنا أيضا أما ، أنا أم الزرع !

لعبت أم سليمان حاجبيها وأخرجت صوتا متحشرجا من حلقها رافقته حركة بذيئة باصبعها الوسطى وقالت :

ـ مبروك عليـك « زرع » يـا « أم زرع » تعيشى وتجيبى !

وأدارت ظهرها وتركتنى وهى تواصـل ضحكاتها العالية المخيفة ٠

ولم أجد من أشكو له سوى أبويا محمد الذى يعمل أجيرا فى المشتل ويسكن فى كوخ خشبى فى نفس مكان

عمله • فى بداية تعارفنا كنت أناديه «بعم محمد» وهو يناديني « الست فوزية » ولما تآلفنا صرت أسميه « أبويا محمد » وهو يسميني « أم أحمد » نسبة الى ابى رحمه الله الذى كان اسمه أحمد • عندما تضيق بى الدنيا أذهب اليه وأشكو وهذه المرة شكوت له أم سليمان فنصحنى ان أسبها كما سبتنى • قلتله سأحاول وعدت الى بيتى ولكنى لم اكـن واثقـة اننى سأستطيع لأن هـذه المرأة كانت تخيفنى الى حد أننى أراها فى أحـلامى تضحك فتبدو أسنانها طويلة ومخيفة وعلى الأخص ذلك السن الذهبى اللامع ، أراها تضحك فيكون الحلم كابوسا •

ومع ذلك فليست كل أحـلامى كوابيس ، عنـدما أصفو ارى فى الاحـلام الحقول فتكون الاحلام جميلة كالأحلام ••• وملونة •

عندما يكون الحقـل قمحا أراه كالذهب الخـالص تميل به السنابل وتنحنى وتموج فى بحر من زعفران •

وعندما يكون الحقل ذرة أرى الكيزان وقد استوت على عيدانها وسرت فى شواشيها حمرة خمرية فيبـدو الحقل وهو الأخضر بنيا أحمر كماء النيـل فى الشهر التاسع مثقلا بالطمى قبل الفيضان •

وعندما يكون الحقل حديقة برتقال أرى الشجرات صغيرة ومدورة محملة بالثمار كنساء قريتنـا ويكون البرتقال على أخضر الغصون برتقاليا والشمس كمثله فى الزرقاء العالية •

وعندما يكون الزرع كامنـا أرى طين الأرض بين الندى واليابس يمتد حرا واسود يتوارى الحب فيه الا قليلا انشق عن فستقه وأخرج شطأه ، أخضر ·

مرة واحدة رأيت النخل غابة فى السحر ، ولم تكن الشمس قد أشرقت بعد ولكنها كانت على وشك فتخضب الأفق البنفسجى بلون الحناء · رأيت النخـل مستقيم القد شاهق الطول وعميما ورأيت وجوه أهلى فيه ، أبى وأمى وعمتى وابن عمى · كانت وجوههم خضراء شاحبة بلون السعف ولكنى لم أتحقـق ان كانوا يقفون خلف الجذوع أم كانت الجذوع خلفهم · وسمعت صوتا رخيما ودافئا كأنه صوت مقرىء يتلو الآيات قبل أذان الفجر، أو كأنه شىء آخـر ، لا أدرى ؟ ولكن الصوت كان يتردد فى غابة النخيـل سـاعة السحر فقلت لنفسى : « أنت يا فوزية على الأعتاب فتهيئى » ولكنى صحوت ، فتحت عينى فلم أجد سوى الصورة المعلقة على الجدار القديم فعرفت انه كان حلما فانسـكبت من عينى دمعـة ثم استجمعت نفسى وقمت ·

اليوم جاءتنى امرأة تسكن فى نفس الشارع وقالت رأيت أصص الزرع فى الشرفـة قالت انهـا جميلة وسألتنى على استحياء ان اعلمها فأريتها كيف · أهديتها عود نعناع كنت قد زرعته ثم جلسنا وتحدثنا ·

١٩٨٦

قصص قصيرة جدا

● مزقتهما قبضة عاتية • كان سقف الغربة واطئا يرهق الروح • واصلا التعلق ببعضهما كما يتعلق الكهل بذاكرة الفرح والمنفى بذاكرة الوطن وكان يوحدهما حلم يلبس زيا مدرسيا ويقرأ فى الكتب •

● أعطاها بيتا تنبت بين حجارته الزهور • كانت تحب العاصفة والبحر والشلال • ركضت الى الخلاء فاتحة ذراعيها • وعندما بلل المطر ثوبها أرادت أن تعود الى البيت فوجدت الباب مغلقا بالقفل •

● كانت كالزهرة اليانعة • أرادها لنفسه فقطفها واحتفظ بها كما يحتفظ بالزهور بين دفتى كتاب عتيق ثم انصرف عنها وهو يعيرها بالجفاف •

● حملت اليه صخب الروح وأضواءها المشعشعة • حمل اليها أسمنتا لجدران البيت وطحينا للأرغفة • أقبلت عليه راكضة تغنى واصل الانهماك فى صنع

فطيرة لعشاء الأسرة · قالت وهى تبكى : أنت لا ترانى · اضطرب وكاد أن يتألم ثم ربت على كتفها وقام ليعد لها كوبا من الشاى ·

● ملكته بستان الفل والياسمين وكللت رأسه بعناقيد العنب ووهبته انعطافة الروح والقميص المغسول مع كل صباح · وجدته على أربع فى عشة الدجاج الواطئة ، كان جاثيا على ركبتيه يريد سرقة أفراخ الجارة ·

● تربى فى الغربة واليتم · ولما أتت فتح الباب على مصراعيه واحتفى وسلمها كل المفاتيح · ركبت المهر ودفعت بقدميها فى المهماز وفرقعت بالصوت وتصورته حمارا ·

● ولد فى بلاد التين والزيتون والشمس الكبيرة · رماه زمانه الى المدن المغطاة بالثلج · طرق بابها ، قالت : « تفضل » فتزوجا · ورغم السقف والأولاد ، قضى عمره يترك المصابيح مضاءة والمدفئة مشعلة لأنه ظل يرتجف من الوحشة والبرد ·

● رأت عورته فأصابها الفزع · بعد شهور تعودت أن تغض الطرف ثم اشترت آلة حياكة وصارت تتقن

خياطة الملابس المزركشة التى يرتديها ساعة الخروج الى الشارع ٠

● نسجت له قميصا وحياة زينتها البنات والبنين ٠ أخذها دون أن تنفرج أساريره ٠ كانت يده منقبضة وقلبه عكر ، ترج شراسته جدران البيت ٠ ثم مات فارتاح الأولاد ، أما هى فبكت اذ وجدت نفسها بلا غطاء ٠

● ذهبت لسواه ثم عادت باكية ، ربت على كتفها ٠ مرة أخرى ذهبت وعادت ٠ فى المرة الثالثة وضع أشياءه فى صندوق مغلق ٠ بعد عشرين سنة ، انتبهت لوجود الصندوق ٠

● أرادها لنفسه وانتظر ٠ ذهبت لغيره فواصل الانتظار ٠ وعندما أتته أخيرا ضمها اليه حتى شعرت بأصابعه تنغرس فى لحمها ٠ صرخت تطلب النجدة ٠ ورغم وجهها الشاحب والكدمات الزرقاء ، لم يفهم لماذا صرخت ولماذا ركض الآخرون لتخليصها منه ، فقد كان يحبها ٠

● علمها المشى والكلام والحزب السياسى الذى تعطيه صوتها ٠ رأته من النافذة فتولاها الفزع : كان

قنزما . أرادت أن تركض هاربة ، أرادت أن تسقط ما شاهدته ولكنها ظلت واقفة فى مكانها وهى تتمتم : « فليكن » ... وواصلت الحياة .

● رأت كل شيء : الوجه الشاحب والجسد الساكن على الأعتاب والطائر فى فضاء الغرفة . غادرت المستشفى وعادت الى البيت . أعدت للأولاد وجبة ساخنة ، أطعمتهم . قالت : « تصبحون على خير » ثم آوت الى فراشها وأسلمت الروح .

● نظرت الى المرآة فرأت بحرا وصيادين وفضاء تطرزه النوارس ، ناولته المرآة ، نظر فرأى سجنا واطئا وشجرة عارية وغرابا ينعق .

● نظرت الى المرآة فرأت جدتها وأمها وابنتها كالعقد المنتظمة حباته ، يتطابقن فى الخيبة والخسارة .

● نظرت الى المرآة فرأت المذبحة : الجثة المنتفخة والذباب والمعاول التى تحفر المقبرة الجماعية . أشفقت على المرآة وضمتها الى صدرها حتى يشتد عودها .

● نظرت الى المرآة فرأت الراية مكسورة والولد

ينتحب .. آغمضت عينيها فرأت الراية منشورة والولد يغنى .. عاشت عمرها موزعة بين الصورتين .

● نظـرت الى المـرآة فرأت العصـفور ينتفض . قالت : « غدا يأتى له الربيع بالدفء » . جاء الربيع وذهب . نظرت الى المرآة فوجدت العصفور ميتا ، غطته وأخفت المرآة حتى لا تتعثر بها فى الذهاب والاياب .

● تحسست وجهها وألقت بالمرآة بعيدا . تمتمت وهى تجمع حطام الزجاج لكى تلقى به فى القمـامة : مرآة لا تعكس الا الوجه المجعد والعيون الذابلة ... مرآة بلا ذاكرة ، غبية !

● بعـد أن تجـاوزت الستين ، نظرت فى سلتها فوجدتها فارغـة . أعادت كل شىء كمـا كان وعلقت السلة فى ذراعها وسارت فى الأسواق كالمعتاد .

● امرأة تحمل سلة وتمشى فى الشوارع ، لا أحد يعرف ان كان فى السلة خبزا ساخنا أم حلوى مسمومة .

● خبزتهم وعجنتهم وغطتهم بمنديلها حتى اختمروا ثم سوتهم على نارها الهادئة . وعندما صـاروا شبابا يسعون فى مناكبها ولهم أزواج يسكنون اليها ملأتهـا المرارة ولم تفهم لماذا تخبز هى الأرغفة ويأكلها آخرون !

● كرهت بطنها التى تنبت أولادا تحصدهم مناجل الغزاة · قالت : « ليتنى مت قبلهم » وكادت أن تدعو الله أن يأخذها اليه أو يقطع خلفتها · ولكنها عندما كشفت شعرها وتطلعت الى السماء تمنت أن يكون بطنها كالحقول تنبت ملايين السنابل ·

● لم يمنحها زوجها الوردة التى حلمت بها ، فانصرفت عنه الى طفلها الذى تعهدته كبستانى صبور · عندما كبر الولد جاءها متهللا يحمل الوردة بين يديه ويهتف بها : « انظرى يا أمى ماذا أهدى لخطيبتى ! »

● تعمل فى مطبخ ضيق تقضى فيه نهارها ، تقشر البصل والثوم ، وتتصبب عرقا من حرارة الزيت الذى يملأ المكان بدخانه الخانق · وتحتفظ رغم ذلك بنافذة واسعة ترقب منها رف عصافير يعلو فى الفضاء ·

● غسلت لهم ملابسهم الداخلية ونظفت بيتهم وأعدت طعامهم وربت أولادهم · وعندما ماتت ، دفنوها فى مقابر الصدقة لأنها لم تكن سوى الخادمة ·

● رسم المشهد بسيده القمىء ·· وسيده المسيح · رسم الفدائى والوردة ووشم الخريطة · رسم مسدس الاغتيال ·· والشاهدة الحجرية والمواطن يكتب وصيته · كل ذلك رسمه ··· ولذلك قتلوه ·

● رفع سلاحه واستشهد · علقت صورته على الجدار أحيانا تغيب الصورة كما يغيب كتاب قرأته واحتفظت به مع غيره من الكتب فى المكتبة وأحيانا تنتبه كما تنتبه الأم فجأة الى ابنها وهو فى طريقه الى المدرسة فترى كم هو جميل وكم تحبه ·

● فتحت النافذة فرأت القوس المدهش يحيط بقبة السماء وميزت ألوان الطيف ورائحة العشب الندى والقطرات البللورية على أخضر الشجر · همست لنفسها : « من قال ان شر الكون سيسرى ؟! »

● رأته يقترب ، كان متسربلا بالأسود يمتطى حصانه ويرفع منجله · هرولت الى نولها وانهمكت فى نسج ألوان الطيف · وعندما داهمها لم تعرف ان كانت دقات قلبها المتسارعة خوفا من منجله الثقيل أم قلقا على ما لم يكتمل من النسيج ·

١٩٨٨

الفهرس

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٣٩٧٢/١٩٩٠

ISBN — 977 — 2437 — 0

مثل « الفانتازيا » الموسيقية التي يفترض أنها لا تلتزم بتكوين أي قالب موسيقي تقليدي ، ثم تتشكل أنغامها وألحانها ، لتكتشف وتستكمل قالبها الخاص الذي لم يوجد من قبل ولن يوجد — أصلا — من بعد أبدا ... مثلها ، تتشكل قصص هذه المجموعة النادرة : متحولة من تشكيل الحقائق ، موضوعية المنظور المحتوية على سر تركيب الواقع الفعلي ، بناسه وعلاقاته وأماكنه وأجوائه ... واصلة إلى تشكيل المعاني المتجسدة في صور الخيال ، دون أن تفقد قدرتها على احتواء نفس سر الواقع الحميم : فبين قلق الجد على حفيدته — ابنة الشهيد — في عالم لا يعرف الجد مدى خطورته ولا مدى تعقده وغواياته ولا مدى قوة الحفيدة نفسها فيه .. وحتى قلق « العاشقة » المحصور في لقطات قريبة مركزة — على بطلها وناسها وأرضها .. بينهما يمتد خط إحساس رهيف ، جدول من شفافية المأساة ومن احتدام الفرح بمواجهتها لا الغرق فيها ...

خط رهيف ، يغوص أحيانا في طين الأرض أو في طوابا نفس مزلعة بالخضرة والزرع ، أو يحلق أحيانا حتى جمار النخلات وسط سعف القمم الخضراء ..

خط رهيف ، يغوص أو يحلق دون أن يرتد إلى الوراء ، بل يتقدم من لحن الافتتاح الواقعي ، إلى لحن الختام الخيالي ، لكي تتخلق شاعريته ويكتمل قالب الفانتازيا الخاص ، بألحانها : من لحن (قصة) الافتتاح حتى لحن الختام !

٥٠ قرشا

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب